المصابن والصابونية
في مصر والشام زمن سلاطين المماليك
٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م

د. محمد فوزي مصري رحيل [١]

ملخص

يتناول موضوع "المصابن والصابونية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك" العوامل التي ساعدت على توطن صناعة الصابون في هذه السلطنة، كما يلقى الضوء على طريقة تصنيعه، ومعمار المصنع الذي عرف في ذلك الحين بالمصبنة، وأهم المناطق التي ازدهرت بها هذه الصناعة، كما عرض البحث لتجارة الصابون ومجالات انتشارها سواء داخل السلطنة أو بين مدنها أو خارجها، مع إبراز أثر المتغيرات السياسية على أسعار الصابون، وكان لمجتمع الصابونية نصيب من البحث، حيث عرض لطبقات هذا المجتمع والحراك الاجتماعي بين الطبقات ونتائجه وعلاقة الصابونية بالطبقة الحاكمة، أما القسم الأخير من الدراسة فقد اهتم بالدور العلمي للعاملين بصناعة الصابون وتجارته، مع التركيز على من ثبت عطاؤهم العلمي متوازيًا مع مشاركتهم في تصنيع الصابون أو تجارته.

الكلمات المفتاحية: المماليك – صابون – مصبنة - أشنان – قلي – القدس – حلب – القاهرة

---

[١] مدرس التاريخ الإسلامي – كلية التربية – جامعة مطروح.

m_raheel.edu@mau.edu.eg

Soap Industry, commerce, and society
The era of the Mamluk sultans

Faculty of Education, Matrouh University

Dr. Mohamed Fawzy Masry Raheel

Abstract

The research entitled "Masaben and Saponia (Soap Factories and Soap Makers or Traders) in Egypt and El-Sham during the Mamluk sultans" focuses on the elements that contributed to the establishment of the soap industry in this sultanate. It also sheds light on the manufacturing process, the architecture of the factory, which was known as the Masabna at the time, and the key places in which this business grew. The research also focused on the soap trade and its geographical distribution, whether inside the Sultanate, within its cities, or outside, highlighting the effect of political changes on soap costs. The Sabuni society was included in the investigation, as the layers of this society, social mobility across classes and its effects, and the interaction between the Sabunis and the ruling class were presented. The final section was devoted to the scientific role of persons involved in the manufacture and trade of soap, with an emphasis on those whose scientific contributions were demonstrated concurrently with their involvement in the manufacture or commerce of soap.

Key Words: Mamluk, Soap, Soap Factory, Potash, Jerusalem, Nablus, Alepo.

المقدمة:

تعد "المصابن والصابونية" من الموضوعات المسكوت عنها في كتب الحوليات التاريخية، بحكم أن الصابونية من عامة الناس؛ مما صرف اهتمام المؤرخين عنهم إلى الطبقات الحاكمة التي استحوذت على ما سطروه في هذه المصادر، وقد دفعهم إلى عدم الاهتمام بالتأريخ لعامة الناس، تدنى المستوى الثقافي لمعظم المنتمين إلى هذه الطبقة الاجتماعية، لذا أسدل ستار التعتيم على حياتهم وأوضاعهم المعيشية. وتهدف دراسة موضوع "المصابن والصابونية" لبحثه وسبر أغواره، نظرًا لعدم إفراده بدراسة مستقلة من قبل، ومن هنا يسعى البحث للإجابة عن عدد من الاستفسارات من بينها: ما الظروف التي ساعدت على توطن صناعة الصابون، وانتشار مراكز تجارته في شتى بقاع دولة سلاطين المماليك؟ كيف توافر لصناع الصابون في عصر المماليك المعرفة الفنية بطريقة تصنيع الصابون فيما يعرف Know How؟ وكيف كان شكل البناء المعماري لمصنع الصابون في ذلك الحين؟ كيف كان شكل الهرم الاجتماعي للعاملين بتصنيع الصابون وتجارته؟ هل كان هذا الهرم الاجتماعي جامدًا أم وجدت فيه فرص للحراك بين الطبقات؟ وإذا كانت الإجابة بالإيجاب فما نتائج هذا الحراك؟ هل كان الصابونية صناعًا وتجارًا أدورًا واضحةً في ذلك العصر؟ وما أهم تلك الأدوار؟ وعلى أية مستويات ظهرت؟ كيف تركت المتغيرات السياسية والعسكرية أثرها على الصابونية؟ وهل سعوا لتجنب الآثار السلبية لهذه المتغيرات، ناهيك عن السعي للاستفادة منها إن كانت متغيرات إيجابية؟

وقبل أن أبدأ في مسعاي للإجابة على ما قدمت من استفسارات، يجب الإشارة إلى الدراسات السابقة التي تناولت جانبًا أو آخر من جوانب الموضوع، وبلا شك كان لها دورٌ لا ينكر في مضي الدراسة قدمًا للوصول لهدفها، ومن هذه

الدراسات ما قدمه: رئيسة العزة[١]، و رنا عوض الحمود[٢]، و يوسف الزاملي[٣]، و طه الزعارير[٤]. أما دراسة عبد الرحمن مغربي[٥]، وقد أشارت إلى قيام صناعة الصابون في بعض المدن الشامية إجمالاً دون تفصيل، بحكم أنها تناولت موضوعات متسعة متعددة الأهداف ومن هنا لم تفسح المجال لبيان عوامل ازدهار صناعة الصابون، وتجارته وأثر ذلك على الصابونية أنفسهم في كلا القطرين، وما نتج عن هذا التفاعل من آثار.

وفي مقابل الدراسات التاريخية السابقة توجد دراسة أثرية مفيدة قامت بها الباحثة منى محمود سلامة[٦]، وقد ساعدت هذه الدراسة في التعرف على التصميم المعماري لمصنع الصابون أو المصبنة، وخاصة أن التصميم المعماري للمصابن لم يتغير في العصر العثماني عما كان عليه في العصر المملوكي بشكل جوهري، بحكم صيرورة واستمرار الصناعة والقائمين بها، كما أن الثورة الصناعية الحديثة لم تؤثر في هذه الصناعة إلا في القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي على النحو

---

(١) نابلس في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة اليرموك، ١٩٩٥، ص ١١٢-١١٣.

(٢) حرف وصناعات الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة اليرموك، ١٩٩٦، ص ١٣٢-١٣٤.

(٣) "زراعة الزيتون والصناعات القائمة عليه في بلاد الشام في العهد المملوكي"، مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، العدد ٤٣، ٢٠٢٠م، ص ٣٧٩-٣٨٠.

(٤) الحرف والصناعات في جنوب الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، عمان، ٢٠٢١، ص ٨٠-٨٣.

(٥) "الزيتون والصناعات القائمة عليه في نيابة بيت المقدس خلال العصر المملوكي"، مجلة جامعة القدس المفتوحة للبحوث الإنسانية، جامعة القدس المفتوحة، العدد ٤٢، ٢٠١٧، ص ٢١٥-٢١٧.

(٦) عمارة المصابن وعلاقتها بالتخطيط العمراني لمدينة نابلس القديمة، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح، ٢٠٠٣م، ص ٧٠-٧٣.

الذي أثبتته بعض الدراسات الحديثة[١].

وبحث هذا الموضوع ليس بالأمر الهين، فدراسته تواجه العديد من الصعاب أهمها: تناثر المادة العلمية بشكل مقتضب في عددٍ كبيرٍ من المصادر، مما حتم على الدراس التنقيب عن هذه المادة في كثير من المظان؛ بغية الحصول على مادة علمية كافية يمكن دراستها ومعالجتها لتحقيق ما تصبو إليه الدراسة. ومن هنا تنوعت مصادر البحث بين: المجموعات الوثائقية وفي مقدمتها "وثائق الحرم القدسي الشريف"، وسجلات المحكمة الشرعية بالقدس، وكتب الحوليات، وكتب التاريخ المحلي وكتب التراجم، والمصادر اللغوية والفقهية، بجانب الإفادة من الآراء الواردة في الدراسات الحديثة من بحوث وكتب.

وقد قسمت الدراسة إلى مقدمة: شملت أسباب اختيار الموضوع والدراسات السابقة ومصادر الدراسة، في حين خصص التمهيد للتعريف بالصابون لغة واصطلاحًا وما ارتبط به من مصطلحات ونسب مثل: الصبان والمصابن والصابونية، شمل أيضًا العوامل المؤثرة في تصنيع الصابون وتجارته، في حين خصص المبحث الأول لصناعة الصابون تضمن طريقة تصنيع الصابون والمكونات المعمارية للمصبنة، والتوزيع الجغرافي للمصابن في مصر والشام، أما

---

[١] رانيا مطلق عبد الغني: "صناعة الصابون في نابلس(١٩١٨-١٩٤٨م)"، المجلة العربية للدراسات التاريخية، العدد ٦، ٢٠٢٣، ص ٣٢-٤٥؛ غسان دويكات: "قلي وزيتون، دور البدو والقرويين في صناعة الصابون النابلسي"، موقع باب الواد على الانترنت، زيارة ١٨ مايو ٢٠٢٣.

https: / /babelwad.com /ar /%D9%81%D9%84%D8%B3%D8%B7%D9%8A%D9%86/%D9%82%D9%90%D9%84%D9%90%D9%8A%D9%88%D8%B2%D9%8A%D8%AA%D9%88%D9%86%D8%AF%D9%88%D8%B1%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%AF%D9%88%D9%88%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B1%D9%88%D9%8A%D9%8A%D9%86%D9%81%D9%8A%D8%B5%D9%86 /

المبحث الثاني فقد خصص لتجارة الصابون ونطاقاتها: المحلية والإقليمية والخارجية، بينما تضمن المبحث الثالث الأوضاع الاجتماعية للصابونية مهتمًا بطبقات المجتمع العاملة بصناعة الصابون وتجارته، وفرص الحراك الاجتماعي بين هذه الطبقات، أما المبحث الرابع والأخير فمجال اهتمامه العطاء العلمي للصابونية الذين جمع بعضهم بين تجارة الصابون وتصنيعه مع الاشتغال بالعلم. وختمت الدراسة بأهم النتائج التي توصل إليها الباحث.

تمهيد:

الصابون في اللغة والمصطلح:

الصابون في اللغة لفظ مختلف في أصله أهو عربي، أم أعجمي معرب؟ إذ يرى كل من ابن دريد[١] والجواليقي[٢] أنه لفظ معرب، وذكر الفيومي[٣] أنه يصاغ على وزن فاعول، وكأنه اسم فاعل؛ لأنه يمحو الأوساخ كأن لم تكن، ويذهب الزبيدي[٤] إلى أنه لفظ معروف في العديد من اللغات الشرقية منها الفارسية والتركية والعربية من الصعب نسبته لأي منها، أما سعيد الخوري[٥] فحكم بأنه

---

[١] (أبي بكر محمد، المتوفى ٣٢١هـ / ٩٣٣م): كتاب جمهرة اللغة، ج٣، تحقيق رمزي البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧م، ص ١٢٠٧.

[٢] (موهوب بن أحمد المتوفى ٥٤٠هـ / ١١٤٥م): المعرب من الكلام الأعجمي، حقق كلماته ف عبد الرحيم، دار القلم، دمشق، ١٩٩٠م، ص ٤٢٧.

[٣] (أحمد بن محمد بن علي، المتوفى ٧٧٠هـ / ١٣٦٩م): المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، تحقيق د. عبد العظيم الشناوي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٣٣٢.

[٤] (محمد مرتضى الحسيني، المتوفى ١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م): تاج العروس من جواهر القاموس، ج٣٥، تحقيق مصطفى حجازي، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ٢٠٠١م، ص ٣٠٠.

[٥] أقرب الموارد في فصيح العربية والشوارد، ج٢، منشورات مكتبة أية الله العظمى المرعشي النجفي، قم- إيران، ١٤٠٣هـ، ٦٣٢.

فارسي معرب، ويتفق معه فانيمبادي عبد الرحيم[١] في عجمته وتعريبه لكن لا يقول بأصله الشرقي معتبرًا أنه من أصل لاتيني معرب من الأصل Sapo، بل ذكر أن هناك من علماء اللغة من رأى أنه من أصل جرماني[٢] ، وبالرغم من أن أصله عربي أم أعجمي شرقي لم يحسم ويحتاج مزيدًا من التقصي من قبل المتخصصين في اللغات الشرقية، إلا أن فكرة أصله الغربي مستبعدة في ظل الحقيقة المعروفة أن أوربا في العصور الوسطى وخاصة الجرمان، الذين لم يعرفوا الاهتمام بقواعد النظافة والاستحمام ومستلزماتها إلا بعد الاحتكاك بالمسلمين في عصر الحروب الصليبية[٣]، ومصداق ذلك أن الصابون لم يصبح سلعة ضرورية في إنجلترا- وهي من أكبر دول أوربا- إلا بعد عام (٩٧٦هـ / ١٥٩٦م)[٤]، ومن هنا إن لم يكن أصل كلمة صابون عربيًّا، فالأقرب أن يكون فارسيًا.

وفي مقابل ما سبق لم يختلف أحد حول المعنى الاصطلاحي للصابون، الذي يفيد بأنه مادة حين ذوبانها تمكن من تنظيف جسد الإنسان ومختلف السطوح الملوثة[٥]، كما أنه مادة مشهورة تستخدم في غسل الثياب[٦]، ومن الصابون اشتقت

---

[١] الجواليقي: المعرب، ص ٤٢٧، حاشية ٤١٥.

[2] Shipley j., Dictionary of Word Origins, (New York, 1945), p. 328.

[٣] محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٥م، ص ٢٩٦؛ عفاف صبرة وآخران: دراسات في الحضارة الإسلامية، ج٢، مكتبة الرشد، الرياض، ٢٠٠٥م، ص ٢٠٣.

[٤] ول ديورانت: قصة الحضارة، ج٢٨، ترجمة محمد علي أبو درة، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨، ص ٨١.

[٥] منى محمود يوسف: عمارة المصابن، ص ٦٦.

[٦] القللوسي(أبي بكر محمد، المتوفى ٧٠٧هـ / ١٣٠٨م): تحف الخواص في طرف الخواص، تحقيق حسام العبادي، مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية، ٢٠٠٧م، ص ٤٢؛ الزبيدي: تاج العروس، ج٣٥، ص ٣٠٠.

اشتقت النسبة صابوني وصبان إشارة لصانع الصابون أو المتاجر فيه ومصبنة بمعنى مصنع الصابون[١].

وصناعة الصابون من الصناعات القديمة التي يصعب التأريخ لظهورها لدرجة أن هذا القدم ربما دخل في طور الأسطورية قبل التاريخ المدون؛ ومن ثم أطلقت فيه الأقاويل، حتى ذهب داود الأنطاكي[٢] إلى أنه مذكور في كتب هرمس الحكيم[٣]، بل رجح أن صناعته مصدرها وحي إلهي، وربما كان من المعارف

وقد ورد ذكر الصابون في مؤلفات الشعراء والأدباء معبرا عن استخدامه في غسل الثياب أو حتى غسل الهموم، ومن ذلك نظم للشاعر أبي البركات المعري يقول فيه:

همّ الورى في العيد قطع ثيابهم ... جددا وأكثر همنا الصابون
والبن والزيتـون جـل طعامنا ... فيه وأين البن والزيتون

انظر: ابن العديم (عمر بن أحمد بن هبة الله، المتوفى ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م): زبدة الحلب، ج١٠، تحقيق سهيل ذكار، دار الفكر، دمشق، د.ت، ص ٤٣٣٢.

وأيضا :

الذنب صابون الاستغفار يغسله ... كالثوب ينظف بالصابون أن وسخا
فما الذي يغسل الصابون من دنس ... إذا رأيناه صار الذنب والوسخا

ابن عرب شاه (أحمد بن محمد، المتوفى ٨٥٤هـ / ١٤٥٠م): فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء، تحقيق أيمن عبد الجابر، دار الآفاق العربية، القاهرة، ص ٢٠٠١م، ص ٥٢٢.

[١] جمال الدين القاسمي وآخران، قاموس الصناعات الشامية، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٨م، ص ٢٦٨.

[٢] (داود بن عمر الضرير، المتوفى ١٠٠٨هـ / ١٦٠٠م): تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب، ج، ١، مطبعة الجامع للمسرة، القاهرة، ١٣٠٢هـ، ص٢٢٧؛ الزبيدي: تاج العروس بشرح جواهر القاموس، ج ٣٥، ص٣٠٠ ؛ جمال الدين القاسمي وآخران، قاموس الصناعات الشامية، ٢٦٨.

[٣] هرمس الحكيم: ثمة اختلاف حول شخصية هرمس، إذ أشير إليه بعدة أسماء منها: أخنوخ، و إدريس، وهرمز، وتبارت العديد من الثقافات حول العالم تدعى نسبة هرمس إليها، ويذهب الباحث أحمد غسان سبانو إلى أن أول ظهور لمسمى هرمس يعود للثقافة=

المتوارثة عن نبي الله داود، وذكر أن الأقوال متضاربة فيه، وربما كان من تركيبات أبقراط- الطبيب اليوناني المشهور بأبي الطب-، ويذهب ابن أيبك الدوداري[١] والقلقشندي[٢] إلى أن الصابون من مبتكرات نبي الله سليمان، وإن نسبها الألوسي[٣] إلى الجن المسخرين مع هذا النبي الكريم. وقيل إن العراقيين القدماء عرفوا صناعة الصابون بطرق مختلفة[٤]. وإن ذهب عالم النبات والمؤرخ الروماني بليني الكبير المتوفى ٧٩م إلى أن الفينيقيين عرفوا صناعة الصابون من شحم الماعز[٥].

=اليونانية، ورغم تعدد المسميات والخلاف على موطنه اتفق الجميع على صفات عديدة تحلى بها منها: العلم الواسع والارتباط بالله عز وجل، وأنه ظهر في عصر سبق طوفان نوح عليه السلام. لمزيد من التفاصيل ينظر: أحمد غسان سبانو: هرمس الحكيم بين الألوهية والنبوة، دار قتيبة، دمشق، ٢٠١٠م.

[١] (أبو بكر بن عبد الله، المتوفى ٧٣٦هـ / ١٣٣٦م): كنز الدرر وجامع الغرر، ج١، تحقيق بيرمد رامكة، القاهرة، ١٩٨٢م، ص ٣٨٣؛ سبط بن العجمي (أحمد بن إبراهيم، المتوفى ٨٨٤هـ / ١٤٨٠م): نهر الذهب في تاريخ حلب، ج٢، تحقيق شوقي شعث وفالح بكور، دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦م، ص ٣٩.

[٢] (أبي العباس أحمد، المتوفى ٨٢١هـ / ١٤١٨م): صبح الأعشى، ج ١، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ٤٢٥.

[٣] (السيد محمود الألوسي البغدادي، المتوفى ١٢٧٠هـ / ١٨٤٥م): روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج٩، ضبط على عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ، ص ٧٥؛ الغزولي (علي بن عبد الله، المتوفى ٨١٥هـ / ١٤١٣م): مطالع البدور ومنازل السرور، ج٢، تحقيق التيجاني سعيد، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٥م، ص ١١٤.

[٤] نخبة من الباحثين العراقيين: حضارة العراق، ج٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٥م، ص ٣٥٣.

[5] Butler, H. (ed.): Poucher's Perfumes, Cosmatics, and Soaps, (London, 2000), p.26.

وبالرغم من هذه الأساطير إلا أن جاك ريسلر[١] يرى أن العرب هم أول من عرفوا صناعة الصابون من مزج القلي (البوتاس) بالزيت أو شحم الأغنام في بغداد -ويرجح أن ذلك كان في العصر العباسي الأول (١٣٢-٢٣٢هـ / ٧٥٠-٨٤٧ م) ومنه انتقلت سريعا إلى مختلف البلاد الإسلامية ومنها مصر والشام، ومن هنا لم يكن من الغريب ازدهار صناعة الصابون في مصر منذ العصر الطولوني (٢٥٤- ٢٩٢هـ / ٨٦٨-٩٠٥م)[٢].

العوامل المؤثرة في صناعة الصابون وتجارته:

يؤثر في صناعة وتجارة الصابون عوامل عديدة، يتعلق بعضها بوفرة الخامات الأساسية، وبعضها يتعلق بطريقة التصنيع Know How، بجانب عوامل أخرى تتعلق بالأوضاع السياسية والأمنية والسياسات المالية والضرائبية التي تؤثر بشكل مباشر عليها، ويمكن إجمال هذه العوامل فيما يلي:

أولًا- وفرة المواد الخام:

صنع الصابون[٣] من عدة مواد شملت: زيت الزيتون، ورماد عشبة الصابون والجير والمواد العطرية، وقد ساعد الموقع الجغرافي لمصر والشام على انتشار زراعة أشجار الزيتون، التي يجود زراعتها في إقليم البحر المتوسط بين خطي عرض ٢٧ و ٤٤ شمالاً، ومن الملحوظ أن مناخ الشام أكثر ملاءمة من مناخ مصر لإنتاج الزيتون، وبالتالي لحظ جودة انتاج زيت الزيتون ووفرته في بلاد الشام؛ مما ترك أثرًا إيجابيًّا على صناعة الصابون بحكم أنه المادة الخام الأساسية لهذه

---

[١] الحضارة العربية، ترجمة غنيم عبدون، وكالة الصحافة العربية، بيروت، ٢٠٢٠م، ص ١٢٩.

[٢] السيد طه أبو سديرة: الحرف والصناعات في مصر الإسلامية حتى نهاية العصر الفاطمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١م، ص ٣٣٥.

[٣] رانيا مطلق عبد الغني: "صناعة الصابون في نابلس(١٩١٨-١٩٤٨م)"، ص ٣٢-٣٣.

الصناعة[١]. ومنذ القرن الرابع الهجري لفت نظر ابن حوقل[٢] كثرة ما تغله أرض فلسطين من زيتون، يعضده الرحالة الصليبي ثيوديرك[٣] الذي زار فلسطين في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي حاجًا وأشاد بكثرة الزيتون حول نابلس، كما ذكرت أشجار زيتون القدس في وثيقة وقف تنكز المتوفى عام (٧٤١هـ / ١٣٤٠م) التي ترجع للقرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي[٤] وأيضا القزويني[٥] في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، وشيخ الربوة[٦] الذي عاش في القرن الثامن الهجري ولحظ أن نابلس تنتج كميات كبيرة من الزيت

---

[١] علي السيد علي: القدس في العصر المملوكي، دار الفكر للدراسات، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ١٩٩؛ حاتم الطحاوي: الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام، عين للبحوث والدراسات الإنسانية، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ٢١٤؛ منى محمود يوسف: عمارة المصابن، ص ٦٥؛ طه حسين الزعارير: الصناعات والحرف في جنوب الشام، ص ٨٠؛ عصام إبراهيم محيسن وآخران: "النشاط الصناعي والحرفي في الموانى الشامية في خلال العصر المملوكي"، حوليات آداب عين شمس، ٢٠١٠م، ص ٩٥.

[٢] (أبي القاسم النصيبي، المتوفى ٣٦٧هـ / ٩٧٧م): صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٢م، ص ١٥٩؛ محمد كرد علي: خطط الشام، ج٤، مكتبة النوري، دمشق، د.ت، ص ١٤٨.

[٣] وصف الأراضي المقدسة، ضمن الموسوعة الشامية في الحروب الصليبية، ج٣٤، ترجمة سهيل ذكار، دمشق، ١٩٩٨م، ص ٣٦.

[٤] حول وقفية الأمير سيف الدين تنكز ينظر: كامل جميل العسيلي: وثائق مقدسية تاريخية، ج١، مطبعة التوفيق، عمان، ١٩٨٣م، ص١١٢؛ عثمان إسماعيل الطل و شوكت رمضان حجة: حجة وقف الأمير سيف الدين تنكز (المدرسة التنكزية) ٧٣٠هـ / ١٣٢٩م- دراسة وتحقيق، مجلة الجامعة الإسلامية بغزة، العدد الثاني، يونيو، ٢٠١١م، ص ١١٥٧.

[٥] (زكريا بن محمد، المتوفى ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م)، عجائب المخلوقات، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ص ٢٧٩.

[٦] (محمد بن أبي طالب الأنصاري، المتوفى ٧٢٧هـ / ١٣٢٧م): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مكتبة المثنى، بغداد، بدون تاريخ، ص ٢٠٠.

تصدر لمختلف بقاع بلاد الشام ومصر والحجاز. وحين زار ابن بطوطة[١] فلسطين في القرن الثامن الهجري أكد هذه الحقيقة معجبا بكثافة انتشار مزارع الزيتون حول مدينة نابلس والقرى التابعة لها. وحين زار فريسكوبالدي[٢] غزة وحبرون أواخر القرن الرابع عشر الميلادي ذكر وجود أشجار الزيتون بها.

كما زرع الزيتون في مساحات كبيرة حول طرابلس وقراها مما سمح بتوافر كميات كبيرة من زيت الزيتون[٣]، ووصف أبو الفدا[٤] زيتون سرمين بالكثرة وأنه يروى بماء المطر، كما ظهر من الحفريات الحديثة كثرة زيتون حمص منذ العصور القديمة[٥] . أما عن زيتون حلب فقد لحظ سبط بن العجمي المتوفى عام (٨٨٤هـ / ١٤٨٠م)[٦] كثرة معاصره.

---

[١] ابن بطوطة (محمد بن عبد الله اللواتي، المتوفى ٧٧٩هـ / ١٣٧٨م): رحلة بن بطوطة، ج١، تحقيق عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٩٩١م، ص ٢٥٤.

See also: , Prawer, J., The Crusader's Kingdom European colonialism in the middle ages, (New Yorks, 1972), p361.

[٢] ليوناردو فريسكوبالدي وسيمونه سيجولي : رحلات إلى الأرض المقدسة، ترجمة شيرين أيبش، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، ٢٠١٠، ص ١٣٥.

[٣] المقدسي (محمد بن أحمد، المتوفى ٣٨٠هـ / ٩٩١م) : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تعليق محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م، ص153 ؛ سليمان عبد الله الخرابشة: مملكة طرابلس في العهد المملوكي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة الأردنية، ١٩٨٥م، ص ٢٣٤؛ رنا سعد الحمود: حرف وصناعات الشام، ص ١٣٢.

[٤] (عماد الدين إسماعيل، المتوفى ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م): تقويم البلدان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت، ص ٢٦٥؛ عادل عبد الحافظ: نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك، ج٢، سلسلة تاريخ المصريين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ٢٠٣.

[٥] محمد كرد علي: خطط الشام، ص ١٥٠.

[٦] (أحمد بن إبراهيم بن محمد): كنوز الذهب، ج١، تحقيق شوقي شعث، وفالح البكور، دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦م، ص ٥١٥؛ ليونهارت راوولف: رحلة الهولندي الدكتور=

في المقابل كان انتاج زيت الزيتون في مصر قليلًا جدًّا مقارنة بالمنتج في بلاد الشام، وبالتالي غلب على الزيت بها زيت السمسم المنتج في الصعيد وبعض قرى الوجه البحري[١]، كما تم إنتاج عدة زيوت من نباتات أخرى مثل الفجل والخس واللفت، وقد ذكر كل من الإدريسي المتوفى عام (٥٦٠هـ / ١١٦٦م) [٢] وعبد اللطيف البغدادي المتوفى عام (٦٢٩هـ / ١٢٣٢م) [٣] استخدامها في تصنيع الصابون.

ومما ساعد على قيام صناعة الصابون في القطرين الشامي والمصري توافر نبات الأشنان أو البلس -ورماده يسمى القلي-[٤] بكثرة في البوادي الشامية وبخاصة الصحراء القريبة من غزة والضفة الشرقية لنهر الأردن حيث احترف البدو جمع الأشنان من البوادي، وحرقه وبيعه لمعامل الصابون أو المصابن[٥]،

=ليونهارت راوولف، ترجمة سليم أحمد خالد، الدار العربية للموسوعات، بيروت، د.ت، ص ٨.

[١] عامر نجيب موسى: الحياة الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي، دار الشروق، رام الله، ٢٠٠٣م، ص ٢٦٢.

[٢] (محمد بن محمد بن عبد الله، المتوفى ٥٥٩هـ / ١١٦٦م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ١٢٨.

[٣] (عبد اللطيف بن يوسف بن محمد، المتوفى ٦٢٩م / ١٢٣٢م): الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، مطبعة وادي النيل، القاهرة، ١٢٨٦هـ،، ص ٤١.

[٤] الأشنان: اسمه العلمي Salicomia هو نبات العرض العشبي، ينتمى لفصيلة نباتية تسمى السرمقيات، وهو نبات بدون ورق، أغصانه صغيرة تأخذ شكل العقد، يتميز بكثرة سوائله، وتنمو أغصانه حتى تصير أخشاب قابلة للحرق، وعند حرقه تكون ناره شديدة، ودخانه كريه الرائحة إلى حد كبير، أما طعمه فمالح إلى حد ما، وينمو بشكل جيد في حوض البحر المتوسط. ابن البيطار (عبد الله بن أحمد المتوفى ٦٤٦هـ / ١٢٤٩م): الجامع لمفردات الادوية والأغذية، ج١، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٦٥م، ص ٢٧؛ ليونهارت راوولف: رحلة ليونهارت راوولف، ص ٨.

[٥] علي السيد علي: القدس في العصر المملوكي، ص١٩٩ ؛ منى محمود يوسف: عمارة المصابن، ص ٧٣؛ عبد الرحمن محمد مغربي: "الزيتون والصناعات القائمة عليه"، ص ٢١٤.

ووجد الأشنان أيضًا بالقرب من طرابلس وحمص وحماة، وكان يحرق ويحمل رماده (القلي) المحتوى على البوتاس –المادة الفعالة لتصنيع الصابون، فأطلق عليه العامة عشبة الصابون. وبسبب قيمة رماد الأشنان الاقتصادية وضخامة المنتج منه في طرابلس، كان يقسم إلى ثلاثة أقسام، قسم يحفظ في خزائن نيابة السلطنة في طرابلس، وقسم يرسل للسلطان في القاهرة، لا شك استخدم جزء منه في صناعة الصابون. أما القسم الثالث فكان يستهلك محليا لصناعة الصابون وربما يتبقى منه جزء يصدر لأوربا للاستخدام في صناعة الزجاج[١].

ثانيًا- توافر الخبرات الفنية:

توطنت صناعة الصابون في عصر المماليك في الشام ومصر بسبب تراكم الخبرات الفنية لدى كثير من الشوام وبعض أهل مصر، وقد أكد كل من الرحالتين فريسكوبالدي و سيجولي[٢] في خواتيم القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) أن سر هذه المهارة يرجع إلى توارث المهن في بلاد الشام حيث كان الابن يرث المهنة عن أبيه فيتشربها جيدًا ويبدع أكثر مما ورث، ومن هنا ازدهرت صناعة الصابون خاصة بعد تمكن الصناع المسلمين من استخلاص كربونات البوتاسيوم وكربونات الصوديوم من عشبة الأشنان[٣].

كما تطورت صناعة الصابون في مدينة الرملة الفلسطينية، أعان على ذلك وفرة الأيدي العاملة المدربة على تصنيع الصابون مما سمح باستعانة مصابن القدس بهذه العمالة الخبيرة[٤]. وتجلى إلمام الصناع بطرق تصنيع الصابون في انتشار هذه

---

[١] ليونهارت راوولف: رحلة الهولندي الدكتور ليونهارت راوولف، ص ٤٩؛ سليمان عبد الله الخرابشة: مملكة طرابلس، ص ٢٣٥؛ طه حسين الزعارير: الصناعات والحرف، ص ٨٠.

[٢] رحلات إلى الأرض المقدسة،١١١، ١٣٨.

[٣] علي السيد علي: القدس في العصر المملوكي، ص١٩٩ ؛ منى محمود يوسف: عمارة المصابن، ص ٧٣؛ عبد الرحمن محمد مغربي: "الزيتون والصناعات القائمة عليه "، ص ٢١٤.

[٤] علي السيد علي: القدس في العصر المملوكي، ص١٩٩ ؛ عبد الرحمن محمد مغربي: "الزيتون والصناعات القائمة عليه"، ص ٢١٤.

الطرق في العديد من المؤلفات في عصر سلاطين المماليك[١].

ثالثا- عوامل دينية وصحية:

الطهارة شرط من شروط أداء العبادة في الإسلام، الأمر الذي ساعد على انتشار الحمامات العامة في مختلف بقاع مصر والشام مثل كثير من مناطق العالم الإسلامي، وعد الصابون من مستلزماتها[٢]. كما كان الصابون أيضًا مادة مهمة في القصور السلطانية لزوم حمام السلطان وحاشيته[٣]، بجانب كونه من أهم مستلزمات الحلاقين[٤]، وورد ذكر الصابون في فتاوى الطهارة لمختلف أحوال الناس من الرجال والنساء[٥]، ومن هنا لاحظنا في حجج الأوقاف تخصيص

[١] من أمثلة هذه الكتب انظر: ابن رسول (يوسف بن عمر المتوفى ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م): المخترع في فنون الصنع، تحقيق محمد عيسى صالحية، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، ١٩٨٩م؛ ابن العديم: الوصلة إلى الحبيب في وصف الطيبات والطيب، تحقيق تشارلز بيري، مطبوعات المكتبة العربية، مطابع جامعة نيو يورك، ٢٠١٦.

[٢] الشيزري (عبد الرحمن بن نصر، المتوفى ٥٩٠هـ / ١١٩٤م): نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٦م، ص ٨٧.

كان الصابون من أهم بنود العناية بالأيتام في القدس، فقد ورد في سجلات المحكمة الشرعية بالقدس إقرار من القاضي لتخصيص النفقة الكافية لما تحتاجه يتيمتان من أشياء عديدة منها الصابون. انظر: حجة ٢٠٥ /ح (رسم نفقة قاصرتين) : ضمن سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل ١٧٣، ج٢، ١٠٨١-١٠٨٣هـ / ١٦٧٠-١٦٧٢م، جامعة القدس المفتوحة، رام الله، ٢٠١٧م، ص ٢٠.

[٣] كان الصابون من مهام موظف الطست خاناه التابع لاستادار القصور السلطانية. انظر: ابن فضل الله العمري (أحمد بن يحيى، المتوفى ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م): التعريف بالمصطلح الشريف، عني بتحقيقه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م، ص ١٣٥.

[٤] ليونهارت راوولف: رحلة الهولندي الدكتور ليونهارت راوولف، ص ٩٣-٩٤.

[٥] ابن الحاج: المدخل، ج١، ص ٢١٢.

كميات من الصابون تسلم لكل متصوف ليستعين بها في نظافته، مثلما حدث في خانقاة سرياقوس التي خصص لكل صوفي فيها رطلين[١] من الصابون كل شهر[٢]، أما الخانقاه الصلاحية فقد ذكر توزيع الصابون على المتصوفة دون تحديد الكمية[٣] ونصت وقفية الأمير تنكز المتوفى عام (٧٤٤هـ / ١٣٤٤م) في مدينة القدس على أن يخصص لكل شيخ من مشايخ الصوفية نصف رطل من الصابون كل شهر ومن دونهم سدس من الرطل[٤]، كما ذكر ابن بطوطة[٥] حين زار مصر في في النصف الأول من القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) أن الصابون كان يوزع على المتصوفة لغسل الثياب في جميع الخانقاوات على كثرتها، ولم يقتصر تخصيص حصص من الصابون على الصوفية وحدهم بل خصص أيضا لمتولي شئون إدارة الدولة من أرباب السيوف والأقلام، ومما يدل على ذلك تخصيص

---

(١) الرطل: وحدة وزن كانت شائعة في عصر المماليك، وكان الرطل المصري يعادل ٤٤,٩ جرام أما الرطل الشامي فكان يعادل ١٧٧,٥ جرام. ينظر: على جمعة: المكاييل والموازين الشرعية، دار القدس، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ٣٠.

(٢) المقريزي (أحمد بن علي، المتوفى ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م): المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، ج ٤، تحقيق أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان، لندن، ١٩٩٥م، ص ٧٦٩.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٤، ص ٧٣٠-٧٣١؛ الأدفوي (جعفر بن ثعلب، المتوفى ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م): الموفى بمعرفة التصوف والصوفي، تحقيق محمد عيسى صالحية، دار العروبة للنشر، الكويت، ١٩٨٨م، مقدمة المحقق، ص ٧.

(٤) وقفية الأمير سيف الدين تنكز، ضمن: كامل جميل العسلي: وثائق مقدسية تاريخية، ج١، ص ١١٧.

(٥) رحلة ابن بطوطة،ج١، ص ٢٠٤.

أوصى السلطان سيف الدين برقوق بتخصيص كميات من الصابون تصرف للصوفية المنقطعين للذكر عند تربته. انظر: الصيرفي (علي بن داود، المتوفى ٩٠٠هـ / ١٤٩٥م): نزهة النفوس والأبدان، ج١، تحقيق حسن حبشي، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٠م، ص ٤٩٥.

أوقية[١] ونصف من الصابون للوزير عبد الله بن تاج الرئاسة عام (٧٤٠هـ / ١٣٤٠م)[٢].

رابعًا- وفرة التمويل:

يعد التمويل من أهم مقومات الصناعة وبدونها لا يمكن شراء الخامات أو دفع أجور العمال أو نقل المنتج للأسواق، وقد توافر تمويل المصابن أو معامل الصابون من خلال التجار، الذين قاموا بدور المنتج والموزع في الوقت نفسه [٣]. ومما شجع على الاستثمار في صناعة الصابون عوائدها المرتفعة وإقبال الناس على استهلاك الصابون لأغراض النظافة أو العلاج[٤]، وبالتالي كانت صناعة الصابون وتجارته من الأنشطة الاقتصادية الاستثمارية التي كان يمولها التاجر ويمكن مقايضتها ببضائع أخرى[٥]، كما كان مجال الاستثمار في عصر الزيتون وصناعة

---

[١] الأوقية: وحدة وزن تعادل عن جمهو علماء المذاهب ١١٩ جرام، وانفرد الحنيفية بجعلها ١٢٤,٨ جرام. ينظر: على جمعة : المكاييل، ص ٢١.

[٢] الصفدي (صلاح الدين بن خليل المتوفى ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م): أعيان العصر وأعوان النصر، ج٢، تحقيق علي أبو زيد وآخرين، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨م، ص ٦٦٥؛ الوافي بالوفيات، ج١٧، باعتناء دورتيا كرافولسكي، شتوتجارت، ١٩٩١م، ص ٩٦.

[٣] العليمي (مجير الدين الحنبلي، المتوفى ٩٢٧هـ / ١٥٢١م): الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج٢، تحقيق محمود الكعابنة، مكتبة دنديس، الضفة الغربية، فلسطين المحتلة، ٢٠٠٩م، ص ٤٨٤.

كان من الشائع أن يتفق التجار مع أصحاب المصابن على إنتاج كمية معينة من الصابون وهو ما ساعد على وفرة أبواب التمويل. ينظر: الخليلي (شرف الدين محمد بن محمد، المتوفى ١١٤٧هـ / ١٧٣٥م): فتاوى الخليلي على المذهب الشافعي، ج١، القاهرة، ١٨٦٧م، ص ١٢٦.

[٤] منى محمود يوسف: عمارة المصابن، ص ٧٣.

[٥] فتاوى الخليلي، ج١، ص ١٨٧.

الصابون جذابًا لأمراء الدولة ومن ثم ملك بعضهم المصابن مثل الأمير محمد الذي تولى وظيفة ناظر برج طرابلس عام (٨٤٢هـ / ١٤٣٩م)[١] كما امتلك الأمير ناصر الدين بن الحنش المتوفى عام (٩٢٢هـ / ١٥١٦م) مصبنة في بيروت[٢].

خامسًا- المتغيرات السياسية والاقتصادية:

بلا شك تأثرت صناعة الصابون- مثل كل الحرف والمهن- وحال العاملين بصناعته أو تجارته بمدى الاستقرار السياسي والأمني في السلطنة، ومن المعروف أن عصر دولة المماليك الأولى (٦٤٨-٧٨٤هـ / ١٢٥٠-١٣٨٢م) كان أكثر استقرارًا من الناحيتين السياسية والعسكرية في ظل طرد الصليبيين ووقف موجة التقدم المغولي غربا وتحجيم قوتهم، وهو ما انعكس بشكل أفضل على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية بحكم أن سلطنة المماليك كانت الملجأ والملاذ للمسلمين الفارين من المغول في الشرق والأسبان في الغرب على حد سواء[٣]، أما عصر دولة المماليك الثانية (٧٨٤- ٩٢٣هـ / ١٣٨٢-١٥١٧م) فقد اختلف الحال في ظل ما واجه الدولة من تقلبات سياسية متسارعة أثرت سلبًا على صمودها في صراعاتها

---

[١] سبط بن العجمي: كنوز الذهب في تاريخ حلب، ج١، ص ٤٢٠؛ محمود محمد الجبارات وآخران: "النشاط الصناعي والحرفي في الموانى الشامية خلال العصر المملوكي"، حوليات كلية الآداب – جامعة عين شمس، مجلد ٣٨، ٢٠١٠، ص ٩٦.

[٢] ابن طولون (محمد بن علي بن أحمد، المتوفى ٩٥٢هـ / ١٥٤٦م): مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، وضع حواشيه خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، ص ٢٣٥.

[٣] حول عصر دولة المماليك الأولى ينظر: المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ج١: ق٢، ٣، ج٢: ق ١، ٢، ٣تحقيق محمد مصطفى زيادة، ج٣: ق١ تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب والوثائق المصرية، القاهرة، ٢٠٠٦م. علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، ١٩٤٤م؛ أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦م؛ أيمن فؤاد سيد: دولة سلاطين المماليك في مصر، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ٢٠١٩م، ص ٤٣-٧٣.

العسكرية مع المغول والصفويين والعثمانيين، ناهيك عن كثرة هجمات القوى الغربية على سواحل مصر والشام أملًا في إعادة الفرنجة (الصليبيين) من جديد، كل هذه التقلبات انعكست سلبًا على أوضاع المجتمع والاقتصاد بكل قطاعاته ومن ضمنها صناعة الصابون وتجارته والعاملين بها كما سوف يتضح في ثنايا هذه الدراسة[١].

المبحث الأول

صناعة الصابون

انتشرت صناعة الصابون في كثير من المدن الشامية وبعض المدن المصرية في عصر سلاطين المماليك، وبحكم أن هذه الصناعة لم تكن مستجدة بل موروثة منذ أزمان بعيدة فقد كانت تقنية التصنيع غير مجهولة، وقد أفادنا في هذا الشأن الملك المظفر بن رسول[٢] المتوفى عام (٦٩٤ هـ / ١٢٩٤م) وعز الدين الجلدكي المتوفى عام (٧٤٣هـ / ١٣٤٣م)، والذي أكد أن الأشنان هو المحتوي على المادة الفعالة

---

[١] حول عصر دولة المماليك الثانية ينظر: المقريزي: السلوك، ج٣: ق ٢، ٣، ج٤: ق ١، ٢، ٣ تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٦م؛ الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، أربعة أجزاء، تحقيق حسن حبشي، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٠م؛ السخاوي (محمد بن عبد الرحمن، المتوفى ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م): التبر المسبوك في ذيل السلوك، أربعة أجزاء، تحقيق نجوى مصطفى كامل و نبيلة إبراهيم مصطفى، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٧م؛ ابن إياس (محمد بن أحمد، المتوفى ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م): بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١: ق٢، ج٢، ج٣، ج٤، تحقيق محمد مصطفى، دار النشر فرانز شتاينر، فيسبادن، ١٩٧٤م؛ حكيم أمين عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية، الدار القومية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٦٦م؛ أيمن فؤاد سيد: دولة سلاطين المماليك في مصر، ص ٧٥-٩٥.

[٢] المخترع في فنون من الصنع، ص ١٩٩.

للصابون[١] وورث داود بن عمر الأنطاكي[٢] المتوفى عام (١٠٠٨هـ / ١٥٩٩م) عن الكيميائيين المماليك هذه الوصفات التي لا شك أنه أدرك بعضهم أو أطلع على مؤلفاتهم، وقد أفادنا كثيرًا في التعريف بطريقة تصنيع الصابون بأنواعه المختلفة، ومن خلاله تم العلم أن أهم خامات تصنيع الصابون تمثلت في: زيت الزيتون ورماد القلي والجير، وربما يستبدل زيت الزيتون بزيوت أخرى كزيت القرطم أو زيت الخروع إذا كان غرض تصنيع الصابون العلاج من الأمراض، لكن يبقى زيت الزيتون أجود الزيوت المستخدمة في تصنيع الصابون[٣]، ومن الجدير بالذكر أن زيت الزيتون المستخدم في صناعة الصابون لا ينتج عن العصر المباشر لثمار الزيتون لكنه يستخلص من العصر الشديد للجفت، وهو المادة الصلبة الناتجة عن عصر الزيتون حيث يتم عصرها بشدة فيستخلص زيت أقل جودة من الزيت الأول، ويستخدم في صناعة الصابون[٤].

وكانت عملية التصنيع تبدأ بمزج رماد القلي والجير بالماء بنسبة واحد إلى

---

[١] (علي بن محمد بن أيدمر، المتوفى ٧٤٣هـ / ١٣٤٣م): كتاب المصباح في علم المفتاح في الحكمة الإلهية والصناعة الحكمية، القاهرة، ١٣٠٢هـ، ص ٦٣؛ مصطفى الجيوسي: موسوعة العلماء العرب والمسلمين وأعلامهم، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٥، ص ١٧٠، ١٧١.

[٢] تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب، ج١، ص ٢٢٧-٢٢٨؛ عبد الرحمن محمد مغربي: "الزيتون والصناعات القائمة عليه"، ص ٢١٤.
لم يفت الطبيب ليونهارت راوولف سؤال الحلبيين عن طريقة تصنيع الصابون، ومن ثم قدم لنا وصفا تفصيليا عن هذ الموضوع يمكن مطالعته في رحلته التي تمت بعد عقدين من نهاية دولة المماليك انظر: ليونهارت راوولف: رحلة الهولندي الدكتور ليونهارت راوولف، ص ٤٧.

[٣] منى محمود يوسف: عمارة المصابن، ص ٦٧.

[٤] عبد الحافظ البنا: أسواق الشام في عصر الحروب الصليبية، عين للبحوث والدراسات الإنسانية، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ٤٨؛ رئيسة عبد الفتاح العزة: نابلس في العصر المملوكي، ص ١١٢.

خمسة، ويقلب لمدة ساعتين ثم يصفى الماء، ويضاف على المكونات السابقة زيت الزيتون بنسبة واحد إلى عشرة ويغلى المزيج مع التقليب المستمر حتى يصير مثل العجين، وبعد ذلك يتم فرشه على حصير ويترك حتى يجف ثم يقطع بأشكال مختلفة، ويطبع عليه علامة المصبنة دعاية للمنتج، وكان الصابون بعد تصنيعه يحفظ في مكان بارد جاف جيد التهوية لضمان احتفاظ الصابون بخصائصه[١] لحين إرساله للسوق أو تصديره عبر الموانى، وفي حالة التصدير كان يوضع في أوعية ربما تكون من الفخار، في كل وعاء عدد من القطع حسب سعته وحجم القطع، ثم تضم هذه الأواني في حاوية أكبر تغلف ويحكم تغليفها حتى تتحمل ظروف التصدير[٢].

وقد أشار داود الأنطاكي[٣] إلى وجود بعض عمليات الغش في صناعة الصابون في بعض الأحيان، حيث يتجه بعض الصناع -غير الأمناء- لمزج الصابون بالنشا قرب النضج، أو استخدام زيوت نباتية غير زيت الزيتون أو مزجها مع زيت الزيتون مثل زيت القرطم، وغرض ذلك بلا شك زيادة الربح بشكل محرم، وهذا النوع من الصابون غير النقي يعرف بين الشاميين بالبلدي، وقليل منهم من يستخدمه بسبب رداءته وقدرتهم على تمييزه[٤].

---

[١] الدمشقي (أبو الفضل جعفر بن علي، عاش في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي): الإشارة إلى محاسن التجارة وغشوش المدلسين، قدم له وعلق عليه محمود الارناؤوط، دار صادر، بيروت، ١٩٩٩م، ص ٤٥؛ ليونهارت راوولف: رحلة الهولندي الدكتور ليونهارت راوولف، ص ٤٨؛ عبد الرحمن محمد مغربي: "الزيتون والصناعات القائمة عليه"، ص ٢١٤.

[٢] الدمشقي: الإشارة إلى محاسن التجارة، ص ٤٥.

[٣] تذكرة أولي الألباب ج١، ص ٢٢٧؛ طه حسين الزعارير: الصناعات والحرف، ص ٨١.

[٤] جمال الدين القاسمي وآخران، قاموس الصناعات الشامية، ص ٢٦٨-٢٦٩.

ومن خلال حديث الأنطاكي[١] عن تصنيع الصابون نعرف أنه في العصور الوسطى لم يكن غرض تصنيعه مجرد تنظيف بدن الإنسان وثوبه فقط، بل كانت له أغراض علاجية فإذا استخدم في صنعته زيت الخروع استخدم في علاج ألام القولون والمفاصل، كما كان يساعد في الخلاص من ديدان البطن وإسقاط الأجنة. أما خلط الصابون مع الملح والنشادر فكان يصلح لتجميل البشرة؛ لأنه يقضى على النمش وألام الركبة أيضًا، وإذا خلط بالسيلقون (أكسيد الرصاص الأحمر) والجير يستخدم كصبغة للشعر، كما يضاف عليه بعض التركيبات الكيميائية ليستخدم في علاج الخراج والدمل والجرب، كما صنع نوع من الصابون عرف بالترياق الهندي يفسد السموم حال الاكتحال به، وقد يخلط به مواد كيميائية فيصير سما زعافا.

وقد أفاض ابن العديم الذي عاش في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) [٢] في وصف طريقة تطييب الصابون وتلوينه، عن طريق صب ماء الورد على الصابون قبل أن يجف ويعجن به حتى يصير مثل المرهم، ويؤتى بالعصفر المدقوق ويعجن معه ويترك ليلة ليختمر ثم يبسط ليجف ثم يقطع بالأشكال المطلوبة وترسم عليه العلامة المرجوة بخاتم من خشب، وربما يصب الخليط السابق في قالب نحاسي داخله خرقه رقيقة تمنع الالتصاق ويترك حتى يصل لمرحلة الجفاف، ثم يختم بشكل معين يميز به صانعه، وهو ما نسميه في عصرنا بالعلامة التجارية، ويصقل بماء الورد عن طريق اليد ثم يغلف، وفي حالة الرغبة في اللون الأبيض لا يضاف العصفر بل يضاف مادة الإسفيذاج (أبيض الرصاص)، أما إن كان اللون المطلوب هو الأصفر الصافي فيخلط الصابون بالزعفران.

---

[١] تذكرة أولى الألباب، ج١، ص ٢٢٧.

[٢] الوصلة إلى الحبيب، ص١٣٧؛ ينظر أيضا: مجهول: كنز الفوائد في تنويع الموائد، تحقيق مانويلا مارين و ديفيد واينز، سلسلة النشرات الإسلامية، بيروت، ١٩٩٦م، ص ٢٢٨؛ رنا سعد الحمود: حرف وصناعات الشام في العصر المملوكي ١٣٢.

أما عن **مكونات المصبنة المعمارية** فكانت تتألف من ثلاثة أقسام يحيط بها سور: **القسم الأول** عبارة عن خزانات غائرة في باطن الأرض أو آبار يخزن فيها زيت الزيتون لحين استخدامه في التصنيع، وبالطبع كلما زاد اتساع ونشاط المصبنة كلما زاد عدد تلك الآبار، وهذا القسم التي تكون بلا شك في مكان مسقوف جيد التهوية.

القسم الثاني عبارة عن حوش كبير مسقوف بسقف عال يسمح بتصريف الأدخنة والروائح الناتجة عن التسخين خلال عملية التصنيع، وفي جانب من جوانب الحوش مستودعات للمواد المستخدمة في التصنيع مثل القلي والجير والجفت والحطب، وفي وسط الحوش مركز طبخ الصابون وهو عبارة عن قدر ضخم من النحاس[١] أو أكثر من قدر حسب حجم المصبنة، وهناك القميم الذي توقد فيه النار لإنضاج الصابون، ويوضع فوقه القدر وله مدخنة متصلة بالسقف لتصريف الدخان، وكان عبارة عن بناء في باطن الأرض ينزل إليه المكلفون بإشعال النار وتغذيتها بعدد من السلالم، وبالقرب منه توضع أحواض للتخمير، وبئر زيت الجيب، الذي يغرف منه بشكل مباشر إلى القدر، وخزان للماء، وللقدر فتحة سفلية يمكن غلقها وفتحها تتصل بالمبزل وهو حوض على صورة نصف دائرة لتصريف الماء الزائد، وبجواره حوض مربع أو أكثر يوضع فيه ماء التخمير أو الماء الصافي للاستخدام في أثناء التصنيع.

القسم الثالث من المصبنة يبنى فوق الأولى وهو مخصص لتجفيف الصابون وتقطيعه حسب الحجم المطلوب، وبالطبع توجد حجرة بجوار باب المصبنة للأعمال الإدارية وجلوس صاحب المصبنة، وفتحت في جوانب المصبنة أبواب واسعة تسمح بدخول الخامات وإخراج الصابون بعد التصنيع[٢]، ومما لاشك فيه أن المصبنة كان يلحق بها إسطبل لدواب النقل.

---

[١] سجل ٣١، سجلات محكمة القدس الشرعية، إعداد إبراهيم ربايعة، أرسيكا، استنبول، ٢٠١٩م، ص ١٣٦.

[٢] منى محمود يوسف: عمارة المصابن، ٧١.

التوزيع الجغرافي للمصابن:

عرف مصنع الصابون بمصر في العصر المملوكي بمعمل الصابون أو الصبانة، ومن بينها معمل في الفسطاط كان شهيرًا أنشأ بجواره الشريف الصبان جامعًا كبيرًا وطاحونًا[١]، وكان هذا المعمل يقوم على زيت الزيتون الوارد من الفيوم، ويرجح راشد البراوي[٢] أن الإسكندرية كان بها معملًا للصابون معتمدًا على اتساع زراعة الزيتون في المناطق المجاورة حيث زرع في ساحل مصر الشمالي منذ أقدم العصور، أما الشريف الإدريسي [٣] وعبد اللطيف البغدادي[٤] فقد ذكرا أن قفط[٥] كان بها مصنعًا للصابون يقوم على زيت اللفت وكذا زيت الخس، ووصف هذا الصابون بأنه من أنظف أنواع الصابون ويوزع في كل البلاد المصرية ومنها يصدر للخارج، ومن الواضح أن كميات الصابون المنتج كان قليلًا في

---

[١] ابن سعيد (علي بن موسى، المتوفى ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م): المغرب في حلي المغرب، تحقيق زكي محمد حسن وآخرين، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ١١؛ ابن دقماق (أبراهيم بن محمد، المتوفى ٨٠٩هـ /١٤٠٧م): الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ج١، تحقيق أيمن فؤاد سيد، مكتبة الإسكندرية، ٢٠٢١م، ١٤٠؛ السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج ٥، دار الجيل، بيروت، د.ت، ص ٢٥٦؛

[٢] حالة مصر الاقتصادية في العصر الفاطمي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٨م، ص ١٨٢.

[٣] نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، ج١، ص ١٢٨.

[٤] الإفادة والاعتبار، ص ٤١.

[٥] قفط: ذكر ياقوت أنها من بلدان الصعيد تبعد عن قوص بمسافة فرسخ، لا تقع على النيل مباشرة لكن تبعد عنه بمقدار ميل، وورد عن السيوطي أنها من توابع قوص، ينظر: ياقوت الحموي (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، المتوفى ٦٢٥هـ / ١٢٢٨م): معجم البلدان، ج٤، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، ص ٣٨٣؛ السيوطي (عبد الرحمن بن محمد بن عثمان، المتوفى ٩١١هـ / ١٥٠٦م): حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ص ٢٩.

العصر المملوكي ومن هنا صار يستهلك بشكل محلي ومن ثم لم يشتهر هذا المعمل آنذاك، وكان القائم بتصنيع الصابون يلقب بالصبان، ويبدو أن المسيحيين في مصر كان لهم باع كبير في هذه الصناعة مثل ميخائيل الصبان الذي صار ناظرًا للمتاجر السلطانية بعد اعتناقه للإسلام[١]، وثمة ترجيح من الباحث السيد أبو سديرة[٢] أن كل مناطق انتاج الزيت في العصر الفاطمي هي في الوقت نفسه مناطق لإنتاج الصابون، أي الفسطاط والإسكندرية وبعض مناطق الدلتا، وهذا الأمر ربما انطبق على العصر المملوكي، لكنه لم يشتهر بسبب قلة الإنتاج وارتفاع الاستهلاك، ومن هنا تم تعويض النقص بالاستيراد من الشام.

أما في بلاد الشام فقد عرفت مصانع الصابون في طرابلس بخان الصابون، وفي هذا الخان تفنن الصناع في إنتاجه بأشكال وأحجام وألوان مختلفة[٣]. وثمة محاولة لرصد عدد مصانع الصابون في بعض مدن فلسطين أسفرت المحاولة عن وجود تسع مصابن في مدينة القدس كلها مجتمعة متقاربة في منطقة سوق الفخر غربي المدينة[٤]. وكان هناك خمس مصابن في مدينة الرملة، أما نابلس فكان فوجد فيها وحدها سبع عشرة مصبنة[٥]، وكان صابون نابلس على وجه التحديد أكثر شهرة من صابون باقي المناطق حيث عرف بالصابون الرقي الذي كان يصدر

---

[١] ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد بن علي، المتوفى سنة ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م): الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة، ج١، بيروت – دار الجيل، ١٩٩٣م، ص ٣١٧.

[٢] الحرف والصناعات في مصر الإسلامية، ص ٢٣٣.

[٣] محمود محمد الجبارات وآخران: "النشاط الصناعي والحرفي في الموانى الشامية خلال العصر المملوكي"، ص ٩٥.

[٤] العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص ١٠٨؛ فيصل عبد الله بني حمد: الأسواق الشامية في العصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك ١٩٩٢م، ص ٤٧ ؛ عبد الرحمن محمد مغربي: "الزيتون والصناعات القائمة عليه"، ص ٢١٤.

[٥] عبد الرحمن محمد مغربي: "الزيتون والصناعات القائمة عليه"، ص ٢١٤.

لمختلف بلاد البحر المتوسط[١]، بأنه يصدر لكل مناطق البحر المتوسط. ولم يقتصر وجود المصابن على هذه المدن فحسب بل وجدت أيضًا في مدن أخرى مثل رام الله[٢].

كما صنع الصابون في العديد من المدن الساحلية ومنها بيروت[٣]، وراجت صناعته في طرابلس واللاذقية[٤] بسبب وفرة الخامات كما قدمنا، أما أنطاكية فقد أنتجت الصابون بشكل متقن حتى عده الغزي[٥] من محاسن أنطاكية، نظرًا لضخامة وجودة المنتج، حتى ساواه بما ينتج في حلب، وكان يمكن للتاجر أو طالب الصابون لأي غرض أن يحدد مواصفات الصابون المطلوب، وحبذ الفقهاء مراجعة الصابون قبل الاستلام للنظر هل هو مطابق للموصفات أم لا، وربما يكون غير مطابق لكن يرتضي به التاجر فيقوم باستلامه[٦]، كما وضع في الاعتبار

---

[١] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص ٢٠٠.

Rey,E., Les colonies franques de Syrie aux XIIe et XIIIe siècles, Paris, 1883, p. 222.

[٢] محمد كرد علي: خطط الشام، ج٤، ص ١٢٥.

[٣] فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج٢، ترجمة كمال اليازجي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥١م، ص ٢٧٨؛ محمود محمد الجبارات وآخران: النشاط الصناعي والحرفي"، ص ٩٥.

[٤] محمد كرد علي: خطط الشام، ج٤، ص١٥٩ ؛ سليمان عبد الله الخرابشة: مملكة طرابلس، ص٢٣٦.

زار الرحالة Pocoke طرابلس عام ١٧٣٣م وذكر أن صابونها حاز في الماضي شهرة واسعة، لكن في وقت زيارته غلبت شهرة الصابون المصدر لأوربا من يافا على الطرابلسي. انظر:

Pococke, R., A Description of the Holy Land and Some Other Countries, Vol. II, Part I, London, 1745, P.101.

[٥] نهر الذهب في تاريخ حلب، ج١، ص ٣١٩؛ عبد الحافظ البنا: أسواق الشام، ص ٤٨.

Rey,E., Les colonies franques, p. 222.

[٦] ابن نجيم الحنفي (عمر بن إبراهيم، المتوفى ١٠٠٥هـ / ١٥٩٧م): النهر الفائق شرح كنز الدقائق، ج ٣، تحقيق أحمد عزو، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م، ص ٣٧٩.

نقص وزن الصابون إذا خزن لمدة طويلة[١].

أما في شمال الشام فقد اشتهرت حلب بإنتاج الصابون وذكر ذلك ابن حوقل[٢] في القرن الرابع الهجري، وقد استمرت هذه الشهرة في فترة الدراسة، وبلغ عدد المصابن أو مطابخ الصابون بها، أكثر من عشرين مصبنة مجتمعة في منطقة تسمى درب الصبانة[٣]، ولم يقتصر تصنيع الصابون على مدينة حلب وحدها لكن الإقبال على الصابون الحلبي أدى لانتشار مطابخ الصابون في قراها المنتجة للزيتون[٤]، كما خصصت بعض المصابن لتكون أوقافًا بحلب[٥]، في حين طبقت شهرة صابون سَرمِين[٦] الآفاق بسبب إنتاج نوع من الصابون يعرف بالصابون الآجري الذي لقي رواجًا عظيمًا في مصر، كما أنتجت أنواع من الصابون متعدد الألوان منها الأحمر والأصفر بغرض غسل الأيدي[٧]. ولم تخلُ طرسوس من مصانع الصابون[٨].

---

[١] الخليلي: فتاوى الخليلي، ج١، ص ١٢٠.

[٢] صورة الأرض، ص ١٦٣.

[٣] سبط بن العجمي: نهر الذهب في تاريخ حلب، ج١، ص ٥١٥.

[٤] المصدر نفسه.

[٥] المصدر نفسه، ج١، ص ٢٦٠.

[٦] سرمين: (تنطق يفتح السين وكسر الميم) بلدة تقع في الإقليم الرابع من توابع حلب، وموقعها وموقعها جنوب حلب، في منتصف المسافة بينها وبين معرة النعمان، تقطع المسافة بين سرمين وحلب في مسيرة يوم حسب تقدير أبي الفداء، الذي وصفها بالخصب والاتساع وكثرة الأسواق. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص ٢١٥؛ أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ٢٦٥.

[٧] ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ج١، ص ٢٧٢.

Ziadeh, N. A., Study of Urban Life in Syria 1200-1400, Ph. D. thesis, University of London, Faculty of Arts, 1950, p. 222.

[8] Rey,E., Les colonies franques de Syrie, p. 222.

عبد الحافظ البنا: أسواق الشام، ص ٤٨.

أما عن أهم الوظائف التي ارتبطت بصناعة الصابون وتجارته، فندر أن صرحت بها المصادر وربما سبب ذلك؛ اشتهار هذه الوظائف عند المعاصرين ومن هنا لم يجد المؤرخون مبررًا لذكرها، لكن بالبحث والتقصي وُجد عدد من الوظائف ارتبط ذكرها جميعا بمدينة حلب، ومنها وظيفة معلم الصابون الذي كان حلقة الوصل بين الدولة وأصحاب المصابن، وكان مكلفًا بجباية الأموال التي تطلبها الدولة من صناع الصابون وتجاره، ومن أشهر المعلمين يونس العادلي المتوفى عام (٩٣٦هـ / ١٥٣٠م)[١]، وناصر الدين بن زين الدين المصابني الذي توفى عام (٩٦٤هـ / ١٥٥٧م) عن عمر يزيد على المائة والعشرين عامًا، أي أنه أدرك أربعين عامًا على الأقل من دولة سلاطين المماليك الجراكسة[٢]، ومن الوظائف المرتبطة بالمصابن وظيفة أمين المصبنة المسئول عن الإشراف على مخزن الصابون، وقبض الثمن، ويبدو أنها كانت وظيفة صغيرة قليلة العائد، وممن تولاها القاضي شرف الدين قاسم بن محمود الحلبي المشهور بابن الصابوني المتوفى عام (٩٣٠هـ / ١٥٢٤م) حين تقاعد من الوظائف وقل ماله ودخله اضطر لشغل وظيفة الأمين، ويبدو أنه كان ملمًا بمتطلبات تلك الوظيفة بحكم انتهاء لقبه بالصابوني[٣] مما يشير إلى أنه من عائلة كان لديها ارتباط بصناعة الصابون وتجارته.

أما كاتب القلي، فكان يسجل كميات القلي الموجودة في مخزن المصبنة وينبه صاحب المصبنة حال تراجع المخزون عن الكمية المعتادة، وممن تولاها ابن ضاحي

---

[١] ابن الحنبلي (محمد بن إبراهيم المتوفى ٩٧١هـ / ١٥٦٣م) : در الحبب في تاريخ أعيان حلب، ج٢، ق ٢، تحقيق محمود محمد الفاخوري و يحي زكريا عبادة، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٣م، ص ٦٢٠؛ محمد راغب الطباخ: إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، ج٥، دار القلم العربي، حلب، ١٩٨٨، ص ٤٣٩.

[٢] ابن الحنبلي : در الحبب في تاريخ أعيان حلب، ج٢، ق ٢، ص ٥٢٠-٥٢١.

[٣] المصدر نفسه، ص ٦٢١.

(بدر الدين بن أحمد العزازي) الذي عاش زمن المماليك الجراكسة وطال عمره حتى توفي عام (٩٦٧هـ / ١٥٦٠م)[١]، ووجد عددٌ من الكتاب عملوا في مكتب العدل داخل سوق الصابون لتوثيق صفقات الصابون[٢]، في ظل كثرة صفقات البيع والشراء في الأسواق الكبيرة مثل سوق القدس وطرابلس وحلب، ومن الملاحظ أن المصادر لم تسعفنا بمزيد من التفاصيل حول وظائف أخرى ارتبطت بالضرورة بصناعة الصابون مثل العمال الصغار من طابخي الصابون والحمالين والمسئولين عن إسطبل المصبنة، ولم تذكر وظائف العاملين في مصانع الصابون في باقي بقاع السلطنة سواء في المدن الساحلية الشامية أو في جنوب الشام حيث فلسطين أو حتى في مصر.

المبحث الثاني

تجارة الصابون

كانت تجارة الصابون رائجة في عصر سلاطين المماليك، وكان الصابون يقطع في صورة ألواح أو قطع[٣] ويباع موزونا بالرطل[٤] أوالقنطار[٥]، وأيضا بالعد كما بدا من وثائق التجار التي حفظت ضمن مجموعة وثائق الحرم القدسي

---

[١] المصدر نفسه، ق١، ج١، ص ٣٤٩.

[٢] عادل حمزة: نيابة حلب، ج٢، ص ٢٥٥.

[٣] السخاوي: الضوء اللامع، ج ٤، ص ١٢٣.

[٤] المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٤، ص ٧٦٩؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٥، ص ٣٣٣.

[٥] القنطار: يعادل مائة رطل، واتفق جمهور الفقهاء على أنه ١٤٢,٨ كيلو جرام في حين رأى الأحناف أنه يعادل ١٤٩,٧ كيلو جرام. ينظر: على جمعة: الموازين الشرعية، ص ٢٥.

الشريف[١]. وكانت تجارة الصابون في ذلك الحين تتم ضمن عدد من النطاقات: محلي، وإقليمي، ودولي.

النطاق المحلي:

يقصد بتجارة الصابون محليًا، تسويق المنتج في المناطق المحيطة بمصانع الصابون، من خلال حوانيت البقالين والعطارين[٢]، وقد لاحظ الباحث رواج توزيع الصابون المنتج في القدس في النطاق الريفي المحيط بها، وكان مركز تسويق الصابون بها في سوق الفخر حيث تتجمع المصابن[٣]، ومن هنا لم يكن من الغريب ذكر الصابون في وثائق التجار التي عثر عليها بالقدس مثل الوثيقة المؤرخة ٦ ربيع الثاني ٧٦٨هـ (١٠ ديسمبر ١٣٦٦م)[٤] و ٣٠ جمادى الثاني ٧٨٩هـ (١٨ يونيو ١٣٨٧م) أيضًا [٥]، ناهيك عن الوثائق غير المؤرخة وذكر فيها التداول المحلي للصابون في الأسواق المقدسية[٦]، وكان الصابون المنتج في حلب يباع لسكانها في

---

[١] ينظر: الوثائق ٢٩٢، ٥٨٣، ٧٩٦، ٨١٧ من وثائق الحرم القدسي الشريف، ميكروفيلم، جامعة ماكجيل، الولايات المتحدة الأمريكية في

Little D., A catalogue of the Islamic Documents from Al-haram As-Sarif in Jerusalem, (Beirut, 1984), p. 243, 362,403 .

[٢] جمال الدين القاسمي وآخران، قاموس الصناعات الشامية، ص ٢٦٩.

[٣] العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص١٠٨؛ عبد الرحمن محمد مغربي: "الزيتون والصناعات القائمة عليه"، ص ٢١٤

[٤] وثيقة رقم ٥٨٣ من وثائق الحرم القدسي الشريف؛

Little D., A catalogue of the Islamic Documents, p. 362.

[٥] وثيقة رقم ٨١٧ من وثائق الحرم القدسي الشريف؛

Little D., A catalogue of the Islamic Documents, p. 366.

[٦] وثيقة رقم ٧٩٦ من وثائق الحرم القدسي الشريف؛

Little D., A catalogue of the Islamic Documents, p. 369.

سوقها المحلي[١]. وحين زار إيمانويل بيولوتي البندقي مصر في النصف الأول من القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) لاحظ رواج توزيع الصابون من الإسكندرية إلى مختلف مناطق الدلتا المصرية[٢]؛ وهو الأمر الذي ساعد على ظهور التاجر المتخصص في تجارة الصابون[٣]. ولا شك أن كل مناطق إنتاج الصابون لا تتوانى عن بيع الصابون لسكان المناطق المجاورة لها، وأنه كان أرخص من الصابون المباع للتاجر الذي يجمعه لغرض التصدير المحلي أو الإقليمي، لكنه غير مغلف وربما أقل جودة أيضًا، كما بيع الصابون محليًّا لينًا غير جاف ومن هنا كان يغرف بملاعق مما حدا بابن بسام المحتسب[٤] في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) أن يشدد على المحتسب بالتأكد من أن الملاعق من الخشب وليس من الحديد؛ لأن ملاعق الحديد تتعرض للصدأ وتلوث الصابون وإذا غسل به الثياب يعرضها لسرعة التلف، كما شدد ابن المبرد الحنبلي[٥] في بداية القرن (العاشر (العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي) على ضرورة أن يدور المحتسب على باعة الصابون ويشدد عليهم ألا يخلطوا الصابون الجيد بالصابون الرديء.

ونظرًا لاتساع تجارة الصابون على النطاق المحلى صار هناك مشاكل في هذه

---

[١] سبط بن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٥١٥ ؛ الغزي (نجم الدين محمد المتوفى ١٠٦١م): الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، ج٣، وضع حواشيه خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ص ١٨٠.

[2] Rapoport, Y., The Rise of Provincial Arab Ruling Families in Mamluk Egypt, 1350–1517, in (MRS, XXV, 2022), p. 153.

[٣] مصطفى غازي بدور: التاريخ الاقتصادي للدولة المملوكية ١٢٥٠-١٥١٧م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الشريعة، الجامعة الأردنية، ٢٠١٥م ؛ ص ١٣٦

[٤] نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تعليق حسام السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨م، ص ٢٩.

[٥] (يوسف بن حسن بن أحمد، المتوفى ٩٠٩هـ / ١٥٠٣م): كتاب الحسبة، نشر حبيب الزيات، مجلة المشرق، العدد ٣، مارس ١٩٣٧م، ص ٣٨٨.

التجارة عرض بعضها على الفقهاء للنظر فيها وبخاصة فيما يتعلق بالزكاة ومقايضة الصابون بالسلع الأخرى[١].علمنا أيضًا من فتوى الفقهاء نشاط تجارة التجزئة على النطاق المحلي فقد أجازوا بيع الصابون للصبية الصغار[٢] واستخدام الصابون السائل لأغراض العلاج[٣]. وكان الصابون من الأصناف الضرورية للاستعمال في مغاسل الثياب (القصارين)[٤]، ونظر الفقهاء في أحكام تجارة الصابون فأفتوا بأن عليه زكاة مثل زكاة عروض التجارة، أما الصابون المخزن للاستخدام في الحمامات وحوانيت القصارين فلا زكاة عليه؛ لأنه ليس لغرض التجارة[٥]، ومن دلالات رواج تجارة الصابون المحلية الاعتقاد الذي انتشر بين النسوة والعوام في عصر المماليك بأن شراء الصابون والأشنان يوم السبت يجلب سوء الحظ، من هنا تبارى الفقهاء المعاصرون لتصحيح هذا الاعتقاد الخطأ ومنهم الفقيه المالكي القارافي[٦]،

---

[١] ابن الرفعة (أحمد بن محمد بن علي، المتوفى ٧١٠هـ / ١٣١١م): كفاية النبيه في شرح التنبيه، ج٥، تحقيق مجدي محمد سرور، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٩م، ص ٤٧٠.

[٢] السغناقي الحنفي (الحسين بن علي بن الحجاج، المتوفى ٧١٤هـ /١٣١٥م): النهاية في شرح الهداية، ج٢٣، تحقيق حمد بن عبد الله بن عبد العزيز، رسالة ماجستير، مركز الدراسات الإسلامية بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى، ١٤٣٨ هـ، ص ١١٤.

[٣] السمنقاني (الحسين بن محمد بن الحسين، المتوفى ٧٤٦هـ / ١٣٤٦م): خزانة المفتين، تحقيق فهد بن عبد الله القحطاني، رسالة دكتوراه، جامعة الملك خالد، ١٤٤١هـ، ص ١٣١.

[٤] المدخل، ج٤، ص١٧.

[٥] السنيكي الشافعي (زكريا بن محمد بن زكريا، المتوفى ٩٢٦هـ / ١٥٢٠م): أسنى المطالب في شرح روض الطالب، ج١، المطبعة الميمنية بمصر المحروسة، القاهرة، د. ت، ص ٣٨٢.

[٦] القرافي (أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن، المتوفى ٦٨٤هـ / ١٢٨٦م): الذخيرة، ج١٣، تحقيق محمد بو خبزة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤م، ص ٢٥٤؛ البقوري (محمد بن إبراهيم، الكتوفى ٧٠٧هـ / ١٣٠٨م): ترتيب الفروق واختصارها، ج٢، تحقيق عمر بن عباد، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الرباط، ١٩٩٦م، ص ٤٦٤؛ ابن النحاس (أحمد بن إبراهيم، المتوفى ٨١٤هـ / ١٤١٢م): تنبيه الغافلين من أعمال الجاهلين وتحذير السالكين من أفعال الجاهلين، تحقيق عماد الدين عباس، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م، ص ٥٠٨.

وأصل هذا الاعتقاد فسره ابن الحاج الفقيه المالكي[١] أنه من تأثير وجود اليهود في أوساط المسلمين في عصر المماليك، ومن هنا انضم لباقي الفقهاء في التحذير من ذلك.

النطاق الإقليمي:

يقصد به حركة تجارة الصابون بين أقاليم الدولة المملوكية، فقد كان هناك وفرة في إنتاج الصابون في مختلف مدن الشام، إذ كانت نابلس وبيروت تنتج الصابون بكميات تشجع على تصديره، إلى عدة مدن داخل السلطنة المملوكية مثل غزة ومختلف المدن المصرية[٢]، في حين كثر نبات الأشنان في غزة فصدرته إلى مواطن صناعة الصابون ومنها القدس ونابلس وبيروت[٣]. كما صدر الصابون والأشنان من طرابلس إلى مصر[٤]. ومن هنا وجدت أسواق خاصة بالصابون في

---

[١] المدخل، ج ١، ص ٢٧٩.

[٢] عصام إبراهيم محيسن وآخران: "النشاط الصناعي والحرفي"، ص ٩٥.

Rey,E., Les colonies franques de Syrie, p. 222.

[٣] عصام إبراهيم محيسن وآخران: "النشاط الصناعي والحرفي"، ص ٩٥؛ عبد الرحمن محمد مغربي: "الزيتون والصناعات القائمة عليه"، ص ٢١٤.

نشطت تجارة الصابون بين طرابلس ودمياط وبين يافا ودمياط في ظل وجود شراكة تجارية بين تجار المدينتين في العصر المملوكي.

صالح بن يحي (توفي بعد ٨٥٧هـ /١٤٥٣م): تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بني الغرب، نشر وتعليق وفهرسة لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٢٧م، ص٢١٩ ؛الخليلي : فتاوى الخليلي، ج١، ص ١٨٧.

[٤] سبط بن العجمي: نهر الذهب في تاريخ حلب، ج١، ص ٥١٥؛ سليمان عبد الله الخرابشة: مملكة طرابلس، ٢٣٦؛ إلياس القطار: نيابة طرابلس في عصر المماليك، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٩٨م؛ ص ٦٦٥.=

مختلف مدن دولة سلاطين المماليك يوزع من خلالها التجار الصابون الذي جلبوه من إقليم إلى آخر، وكان من أشهرها سوق الصابون بحلب الذي كان علامة لا تنكر حتى أن السخاوي حدد مكان الخان الذي بناه الأمير أزدمر[١] بأنه قرب سوق الصابون[٢]. ومن أماكن تسويق الصابون في القاهرة سوق الصابون بالجمالية وداخلها وكالة قوصون، حيث كان يوزع الصابون المستورد من المدن الشامية ليباع في هذه الوكالة بحسب المقريزي[٣]، كما نقل التجار صابون سرمين المشهور بالآجري ليباع في مصر[٤]، وراجت تجارة الصابون من مصر لمكة وممن عمل بذلك

=ومن الجدير بالذكر أن الرحالة Pococke الذي زار فلسطين في الثلث الأول من القرن الثامن عشر قد ألفى تجارة الصابون الرائجة من يافا إلى مصر مثلما كانت في عصر المماليك، كما أشار إلى أنه بالرغم من أن الصابون يصنع في القدس ورام الله واللد إلى أنه يجمع ويصدر من يافا ومن هنا عرف كل صابون هذه المناطق بالصابون اليافوي.

Pococke, R., A Description of the Holy Land Vol. II, Part I, P. 3.

[١] عن أزدمر الظاهر جقمق أمير حلب انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج٢، ص ٢٧٥.

[٢] نفسه.

[٣] المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص ٣٠٩؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية، ج١، القاهرة، ١٨٨٨م، ص٧٠؛ مصطفى غازي بدور: التاريخ الاقتصادي للدولة المملوكية، ص ١٠٦.
استمرت هذه الوكالة في عملها في العصر العثماني، وبسب حركة التجارة بين مدن فلسطين وأسواق مصر الكبرى ومنها وكالة الصابون في القاهرة، صارت هناك علاقات اجتماعية وحالات زواج وإرث، ومن هذه الحالات إثبات زكريا أفندي بن الشيخ صالح الخالدي حقه في ميراث جده في حاصل وكالة الصابون بالقاهرة. انظر: سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل ١٧٣ : حجة ١٣٠ /ح (وكالة للحصول على إرث)، ج٢، ١٠٨١-١٠٨٣هـ / ١٦٧٠-١٦٧٢م، جامعة القدس المفتوحة، رام الله، ٢٠١٧م، ص ٧٦.

[٤] ابن بطوطة: رحلة بن بطوطة، ج١، ص ٢٧٢.
حين زار الرحالة التركي أوليا جلبي مصر في نهاية القرن الحادي عشر الهجري أشاد بتجارة الصابون الرائجة. انظر: أوليا جلبي (أوليا جلبي بن درويش محمد ظلي، المتوفى ١٠٩٥هـ/=

من التجار أبو الفتح بن حرمي المتوفى عام (٨٧٢هـ / ١٤٨٦م) الذي حمل الصابون من وكالة قوصون في القاهرة إلى مكة عبر غزة[١].

النطاق الدولي:

يقصد بالنطاق الدولي حركة تصدير الصابون من المدن والموانى المملوكية إلى مختلف مناطق العالم الخارجي مثل أوربا وأسيا الصغرى وبلاد فارس، وقد لاحظ الباحث إقبال الأوربيين على الصابون المنتج في القدس[٢]؛ تبركًا به بحكم مَقْدِمِه من مهد المسيح، وكان لتجار جنوة والبندقية دور كبير في ذلك[٣]، وصُدر الصابون أيضا من موانى السلطنة الشامية مثل: بيروت و طرابلس وعكا إلى الموانئ الأوربية عبر البحر المتوسط[٤]، وكان سوق حلب للصابون بدرب الصبانة من الأسواق الكبيرة التي يفد إليها التجار الأجانب لشراء الصابون وتصديره إلى مدن أسيا الصغرى والعراق وديار بكر[٥].

=١٦٨٤م): الرحلة إلى مصر والسودان والحبشة، ج١، ترجمة حسين مجيب المصري، دار الافاق العربية، القاهرة،٢٠٠٦م، ص ٣٣٨.

[١] السخاوي (ت ٩٠٢هـ): الضوء اللامع، ج ٩، ص ١٢٣؛ ابن العماد الحنبلي (عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري المتوفى ١٠٨٩هـ / ١٦٩٧م): شذرات الذهب، في أخبار من ذهب، ج١٠، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار بن كثير، دمشق، ١٩٩٣؛ ص ٤٣-٤٤.

[٢] عبد الرحمن محمد مغربي: "الزيتون والصناعات القائمة عليه"، ص ٢١٤.

[٣] القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٨، ص ١٢٣-١٢٥.

[٤] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص ٢٠٠؛ عصام إبراهيم محيسن وآخران: "النشاط الصناعي والحرفي"، ص ٩٥.

Zeyada, Study of urban life, p. 234

[٥] سبط بن العجمي: نهر الذهب في تاريخ حلب، ج١، ص ٥١٥؛ محمد كرد علي: خطط الشام، ج٤، ص ٢٤٣.

وبسبب كثرة الصابون المنتج في طرابلس والقرى التابعة لها، وبقاء كميات كبيرة من الأشنان الزائد عن الحاجة تم إنشاء سوق في طرابلس، لتصدير الصابون والأشنان لبلاد الأناضول وأوربا [١]، وكانت مدينة يافا مركزًا لتجميع الصابون من مختلف المدن الفلسطينية ليصدر إلى أوربا[٢]،كما صدر الصابون من عكا وطرابلس وأنطاكية إلى الموانى الإيطالية بوساطة التجار الإيطاليين[٣] وبخاصة الصابون المعطر,Scented Soap [٤].

وبسبب ضخامة حركة تجارة الصابون الدولية أوصى الدمشقي[٥] التاجر

---

[١] سبط بن العجمي: نهر الذهب في تاريخ حلب، ج١، ص ٥١٥؛ سليمان عبد الله الخرابشة: مملكة طرابلس، ٢٣٦؛ إلياس القطار: نيابة طرابلس؛ ص ٦٦٥.

ظل صابون سرمين يصدر إلى العديد من البقاع بسبب جودته وتنوعه، طوال عصر التبعية العثمانية، وحين زارها الرحالة Pococke في القرن الثامن عشر وجدها مشهورة بإنتاج الصابون وتصديره إلى بلاد فارس مثلما تركها ابن بطوطة. ينظر:

Pococke, R., A Description of the Holy Land, P.146 .

[٢] علي السيد علي: القدس في العصر المملوكي، ص ١٩٩؛ عبد الرحمن محمد مغربي: "الزيتون والصناعات القائمة عليه"، ص ٢١٤

[٣] عادل زيتون: العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار دمشق، دمشق، ١٩٨٠، ص١٧٦ ؛ طه حسين الزعارير: الحرف والصناعات، ص٨٣.

أشاد ليونهارت في رحلته التي زار فيها بلاد الشام في منصف القرن السادس عشر الميلادي بعيد نهاية دولة المماليك بازدهار تجارة الصابون من حلب إلى أوربا بوساطة التجار البنادقة الذين يحملون كميات كبيرة منه ومن القلي للاستخدام في صناعة الصابون، وذكر أن هذه التجارة أكثر بكثير من باقي الأصناف التي يتاجر فيها البنادقة. انظر: رحلة الهولندي الدكتور ليونهارت راوولف، ص ٤٦.

Rey,E., Les colonies franques de Syrie aux XIIe et XIIIe siècles, Paris, (1883), p. 222.

[4]Tolkowsky, S., The Gateway of Palestine: A History of Jaffa, (New York, 1925), p. 126.

[٥] الإشارة إلى محاسن التجارة، ص ٤٥.

الذي يعمل في استيراد الصابون والمستلم لشحنته -ينطبق ذلك على النطاقين الإقليمي والدولي- أن يعاينها أولًا قبل الاستلام فيطمئن على سلامة التغليف، فإن كان الغلاف سليماً يتم فضه والنظر في سلامة الأوعية الداخلية الحافظة لقطع الصابون، فما كان مكسورا استبدل بوعاء سليم ثم ينقل لمحزن بارد جيد التهوية لحين نقله للسوق، وكان من الشائع أن يقدم البائع للمشترى عينة من الصابون المراد بيعه فإن لقي لديه القبول اشترى الكمية التي تناسبه[١].

ومما ساعد على رواج تجارة الصابون إلى أوربا في عصر سلاطين المماليك تعرفهم على أهمية الصابون خلال فترة الاحتلال الصليبي للساحل الشامي (القرنين ٦، ٧هـ / ١٢، ١٣م)، فمن الثابت أن الأوربيين لم يعرفوا الصابون قبل الغزو الصليبي[٢] لكنهم استخدموه بعد أن أدركوا أهميته خلال وجودهم في الساحل الشامي، وانتقلت إليهم قيم التحضر بعد معرفتهم للحمامات وأهميتها، خلال إقامتهم في هذه المدن واختلاطهم بالمسلمين وإدراكهم قيمة النظافة التي افتقدوها كثيرًا قبل غزو الشام، وبالتالي ازدهرت صناعة الصابون وتجارته خلال فترة تواجدهم في الساحل الشامي، في العديد من المدن الساحلية مثل: أنطاكيا وطرسوس وأيضًا طرابلس[٣]، حتى وضع ملك بيت المقدس الصليبي نابلس من

---

[١] ابن قطلوبغا (زين الدين قاسم، المتوفى ٨٧٩هـ / ١٤٧٤م): مجموعة رسائل العلامة قاسم بن قطلوبغا، تحقيق عبد الحميد محمد الدرويش، عبد العليم محمد الدرويش، دار النوادر، دمشق، ٢١٠٣م، ص ٣١٥.

[2] Oldenbourg, Z., The Crusades, (New York, 1965), p. 5.

[3] Rey,E., Les colonies franques, p. 222.

زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٥٧م، ص ١٨٣؛ نهى فتحي الجوهري: إمارة طرابلس الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي / السابع الهجري، دار العالم العربي، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص ١٢٩.

جملة الإقطاعات الملكية للاستفادة من عوائد الضرائب المفروضة على المصابن ولم يكن يسمح لأحد بالعمل بصناعة الصابون إلا بإذن الملك الصليبي[١]، فلما طردوا لم تتوقف تجارته بين الشام وموانى أوربا، وحملوا معهم تقنيات تصنيع الصابون إلى بلادهم[٢].

أثر المتغيرات السياسية على أسعار الصابون:

فيما يتعلق بأسعار بيع الصابون خلال العصر المملوكي بقسميه البحري (الأول) والجركسي (الثاني) فلا تسعفنا المصادر بكثير من الأرقام تمكننا من رصد معدلات التغير، فخلال العصر البحري (٦٤٨-٧٨٤هـ / ١٢٥٠-١٣٨٢م) لم نحصل على أرقام يبنى عليها، وربما السبب في هذا الصمت هو أن سعر الصابون لم يشهد تغيرات تذكر ومن ثم لم تهتم المصادر بذكر الأسعار، لكن في العصر الجركسي (٧٨٤-٩٢٣هـ / ١٣٨٢-١٥١٧م) هناك بعض الأرقام لاحظنا منها أن أسعار الصابون قد تذبذبت كثيرًا واضطربت بالتوازي مع اضطراب أحوال السلطنة، ففي عام (٨٠٥هـ / ١٤٠٣م) نتيجة لما تعرضت له مصر من نقص الفيضان مواكبًا لجفاف أدى إلى نقص في انتاج المحاصيل الزيتية، فارتفع سعر الصابون من ١٠٠ درهم إلى ٥٠٠ درهم للقنطار الواحد، ثم قفز فجأة في نهاية العام إلى ٧٠٠ درهم وفي نهاية العام التالي وصل إلى ٩٠٠ درهم[٣]، كما تأثرت

---

[١] منى محمود يوسف: عمارة المصابن، ص ٦٨.

[2] Tolkowsky, S., The Gateway of Palestine, p. 125.

عادل زيتون: العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب، ص١٧٦؛ حاتم الطحاوي: الاقتصاد الصليبي، ص ٢١٨؛ طه حسين الزعارير: الصناعات والحرف، ص ٨١.

[٣] الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، ج٢، ص ١٦٢، ١٦٩، ١٧٨؛ عبد الرحمن محمد مغربي: "الزيتون والصناعات القائمة عليه"، ص ٢١٥.

أسعار الصابون سلبًا بسياسة رمي البضائع[١] التي اتبعها سلاطين دولة الجراكسة بشكل مبالغ فيه خاصة بعد عام (٨٩٠هـ / ١٤٨٥م)، ويروي العليمي الحنبلي[٢] مقدار الظلم الذي وقع على أصحاب المصابن من جراء سياسة الرمي في القدس، فقبل عام (٨٩٠هـ / ١٤٨٥م) كان السعر متروكًا لأوضاع السوق فكان في صعود وهبوط، لكن من هذا التاريخ فصاعدًا صار زيت الزيتون يرمى على صناع الصابون بالسعر الذي تحدده الدولة، وعلى سبيل المثال ما حدث في عام (٨٩٦هـ / ١٤٩١م) صدر مرسوم حمله الأمير السيفي قانصوه، برمي الزيت على سكان القدس جميعا- صناع الصابون وغيرهم من باقي الرعية من كل الديانات- مستخدمًا مختلف وسائل الظلم في جمع المال، كما تكرر في عام (٨٩٨هـ / ١٤٩٣م) مثل هذه الإجراءات التعسفية لجمع المال وهي أمور بلا شك تركت آثارا بالغة السوء على سكان المناطق التي طبقت فيها هذه السياسة الظالمة.

وقد تركت سياسة الرمي آثارًا سلبية بليغة على تجار الصابون منها إقدام تاجر صابون دمشقي عام (٨٩٥هـ / ١٤٩٠م)، على شنق نفسه بسبب عجزه عن دفع ثمن الصابون الذي رمي عليه، مما أغضب أهله فرفضوا دفنه حتى يرى فيه القاضي رأيه، وذهب والده لنائب السلطان في دمشق قانصوة اليحياوي المتوفى

---

[١] سياسة رمي البضائع: يقصد بها إجبار التجار وأصحاب المصالح وأحيانا عامة الناس على شراء البضائع من الدولة بالسعر الذي تحدده الدولة وهو في الغالب أعلى من السعر السوقين وهو ما كان يكبدهم خسائر فادحة. ينظر: محمد عيسى صالحية: "ظاهرة الطرح والرمي في الاقتصاد المملوكي"، مجلة أبحاث جامعة اليرموك، مجلد ٩، ١٩٩٣م، ص ٥٣.

[٢] العليمي : الأنس الجليل، ج ٢، ٤٨٤.

Little, D., "The Governance of Jerusalem under Qaytbay", in: Winter, M& Levanoni, A., (ed), The mamluks in Egypt and Syrian, Politics Society, (Leiden, 2004), p. 153.

عام(٩٠٢هـ / ١٤٩٧م)، طلبًا لحق الضحية خوفا من بطش الدوادار المسئول عن جمع هذه الأموال، فما كان من نائب السلطان إلا إلقاء اللوم على والد القتيل؛ لأنه غني ولم يقم بسداد ما على ولده من مال الرمي، وحكم عليه بالإعدام، ثم خفف الحكم بدفع مائة دينار، وسمح بدفن القتيل، وزيد الظلم بالقبض على والد القتيل في المقابر حين ذهب لدفن ولده، ولم يترك حتى دفع خمسًا وعشرين دينارًا إضافية[١]، وهذه الرواية تؤكد أن تصرف الدوادار كان تنفيذًا لقرارات نائب الشام الذي أمعن في إيقاع الأذى بالرعية لجمع الأموال للخزائن السلطانية في هذه الفترة الحرجة من تاريخ السلطنة، حين زادت الضغوط الخارجية وتراجعت فيها عجلة الإنتاج وصارت الرعية ضحية للأوضاع القائمة، ومن ثم لم يكن من المستغرب انحياز كثير من الشوام إلى العثمانيين حين اجتاحوا السلطنة عام (٩٢٢هـ / ١٥١٦م) أملًا في الخلاص من هذا الظلم.

وقد تسببت سياسة رمي البضائع في احتقان شعبي في كثير من المراكز التجارية المملوكية، وهو ما أدركه السلاطين فحاول بعضهم استجلاب رضا الرعية وبخاصة في أواخر عمر السلطنة، ووسيلتهم لذلك رفع المظالم عنهم ومنها رمي الصابون على التجار، وفي هذا الإطار قرر السلطان قايتباي(٨٧٢- ٩٠١م / ١٤٦٨-١٤٩٦م) إلغاء تحكير[٢] المصابن و رمي الصابون أيضًا على أهل حلب عام (٩٠١هـ / ١٤٩٦م)[٣]، ويبدو أنه كان أمرًا يخص حلب دون غيرها، ومن هنا لم يكن غريبًا أن يصدر منشورًا مستقلاً يخص طرابلس، عثر عليه منقوشًا على الباب

---

[١] ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص ١٠٠.

[٢] التحكير: يقصد به الاستيلاء على الصابون المنتج من قبل موظفي الدولة وبيعه في السوق بأعلى من قيمته السوقية، ينظر: محمد عيسى صالحية: "ظاهرة رمي وطرح البضائع"، ص٥٤.

[٣] ابن الجيعان (محمد بن يحيي، المتوفى ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م): القول المستظرف في سفر مولانا الأشرف، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، بيروت، ١٩٨٤م، ص ٧٠.

الشرقي للجامع الكبير في طرابلس يتضمن بتخفيف الضرائب والمظالم المفروضة على أهل طرابلس ومنها وقف طرح الصابون ومستلزمات تصنيعه من الأشنان والزيت، والنقش مؤرخ بعام (٩٠٨هـ / ١٥٠٣م) في عهد نيابة الأمير دولتباي بن أركماس اليحياوي نائب السلطنة المتوفى(٩١٧هـ / ١٥١٢م) [١]، كما خفف السلطان الملك الناصر محمد بن قايتباي عام (٩٠٣م / ١٤٩٨م) عن الناس في القدس ونابلس بإلغاء طرح الزيت تأليفًا للقلوب ورغبة في جمع الكلمة حوله[٢]، وكان رد فعل الناس على ارتفاع الأسعار يتسم أحيانًا بالجنوح للعنف مما أثر سلبًا على تجارة الصابون مثلما حدث في حلب عام (٨٦١هـ / ١٤٥٧م) حين اشتكى الناس من الغلاء لجانك كافل حلب، ولما لم يتخذ إجراء للحد من الغلاء ثاروا وهاجموا سوق الصابون ونهبو حانوتًا[٣].

وكان لكثرة خروج الأمراء على السلاطين آثارٌ بالغة السوء على إنتاج الصابون وتجارته، ومن أمثلة ذلك الاضطراب الأمني الذي صاحب حركة تمرد الأمير تغري برمش عام (٨٤٢ هـ / ١٤٣٩م) حين خرج عن طاعة السلطان جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ / ١٤٣٩- ١٤٥٣م) ولما طرد من حلب هاجم طرابلس وسيطر عليها وجبى من أهلها الأموال، وكان من جملة هذه الأموال أن فرض على كل تاجر صابون ألف درهم، وصادر كل الصابون التابع لأمراء الدولة، كما

---

[١] عمر عبد السلام تدمري: تاريخ وآثار مساجد ومدارس طرابلس في عصر المماليك، دار البلاد، طرابلس، ١٩٧٤م، ص ٨٢؛ سليمان عبد الله الخرابشة: مملكة طرابلس، ص ٢٣٦.

[٢] الصالحي (عبد الصمد بن يحيي، المتوفى بعد عام ٩٠٢هـ / ١٤٩٣م): هدية العبد القاصر إلى الملك الناصر، تحقيق محمد جمال الشوربجي، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٧م، ص ٤٦؛ ابن الشحنة (عبد البر بن محمد، المتوفى ٩٢١هـ / ١٥١٥م): البدر الزاهر في نصرة الملك الناصر المنسوب إلى ابن الشحنة، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، ١٩٨٧م، ص ٦٨٨.

[٣] سبط بن العجمي: كنوز الذهب من تاريخ حلب، ج٢، ص ٢٨١.

تعرض لمصبنة يملكها الأمير محمد ناظر برج حلب ونهب ما بها من قدور نحاسية بغرض صناعة المكاحل[١] لضرب البرج[٢].

المبحث الثالث

الأوضاع الاجتماعية للصابونية

تكون مجتمع الصابونية في فترة الدراسة من طبقات ثلاث: الطبقة الأولى، هي طبقة الصفوة أصحاب رؤوس الأموال من التجار القائمين بالتسويق والذين يزودون المصابن بالزيت مقابل شراء الإنتاج، أو الجامعين بين ملكية المصابن والتسويق[٣]. وكان على رأس هذه الطبقة معلم سوق الصابون، ومنهم يونس بن علي العادلي، والذي جمع بين منصب معلم المصابن وبين تجارة الصابون [٤]، ومنهم عبد الكريم بن عبد الله الذي كان على قيد الحياة عام (٩٢١هـ / ١٥١٥م) والذي وصف بأنه كان مترفًا في كل شئونه؛ بسبب ضخامة ثروته بالرغم أنه كان في أول حياته عبدًا من أصل هندي[٥].

---

[١] المكاحل: تشبه المدافع في عصرنا الحالي، وكانت وظيفتها إطلاق قذائف من المواد المشتعلة المكونة من البارود ومواد أخرى، بغرض حرق الهدف المطلوب سواء أبنية مدنية أو عسكرية أو حتى المزارع. ينظر: ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، مطبعة العاصمة، القاهرة، ١٣١٢هـ، ص ٢٠٨.

[٢] سبط بن العجمي: كنوز الذهب في تاريخ حلب، ج١، ص ٤٢٠.

[٣] منى محمود يوسف: عمارة المصابن، ص ٧٧-٧٩.

[٤] ابن الحنبلي: در الحبب في تاريخ أعيان حلب، ج٢، ق ٢، ص ٦٢٠؛ محمد راغب الطباخ: إعلام النبلاء، ج٥، ص ٤٣٩؛ عمر جمال محمد: وثيقة وقف الخواجا شرف الدين يونس بن علي الصابوني، مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة، العدد ٥٧، أغسطس ٢٠١٥م، ص ٤٣١.

[٥] ابن الحنبلي: در الحبب، ق١، ج٢، ص ٨٤٢.

أما الطبقة الثانية فحالها أقل من الطبقة الأولى من الناحية المادية، وشملت العمال المهرة أو أشباه المهرة، وهم عصب هذه الصناعة، وكانت خبرتهم متوارثة حيث كانت تنتقل من الآباء إلى الأبناء، وبالتالي نسبوا للصنعة فظهر لقب الصابوني والصبان، وقامت بينهم وبين أصحاب المصابن علاقة قوية، سمحت بالحراك الاجتماعي نحو الأعلى[١]، وينتمى لهذه الطبقة جماعة من القائمين بالأعمال الإدارية في المصابن، منهم أمين المصبنة وممن تولى هذه الوظيفة محمد المغربي الديوني أمين المصبنة المهدية بحلب، الذي وصف بأنه كان على علم وحسن الهندام و أبهة، والذي انتهت حياته بسبب اتهام تاجر صابون له بالخيانة، وكان هذا التاجر ذو ثراء عريض فاستعان بأبرك الجركسي- نائب قلعة حلب- الذي أمر بضرب أمينة المصبنة حتى مات من الضرب عام (٩١٣هـ / ١٥٠٨م) مما ترتب عليه ثورة من قبل المغاربة في حلب وكادوا ان يحجموا عن دفنه حتى يأخذوا بثأره[٢].

وبلا شك تبين هذه الحادثة سطوة أصحاب رءوس الأموال في الاستقواء بالسلطات الحاكمة، على الفئات المستضعفة، كما يبدو لنا أن هذا التاجر نسى أنه كان يومًا من هذه الطبقة، وعليه أراد أن يؤكد انتماءه للطبقة الأعلى بالاستعانة بماله لسحق الضعفاء. كما يؤكد وجود نوع من الفساد الإداري الذي أدى لعقاب شخص أو الإسراف في ضربه لانتزاع اعتراف بجريمة لم يرتكبها؛ مما أودى بحياته دون أن يعاقب الفعلة الحقيقيين لهذه الواقعة، وهو الأمر الذي يبين الاستخفاف بالقضاء وانقضاض السلطة التنفيذية على اختصاصات السلطة القضائية، لكن ذلك لم يمنع من وجود صابونية كان لهم دور في نصرة الضعيف ورد الحق إلى أهله مستعينين بما من الله عليهم من اتساع الرزق، ومنهم الشيخ شمس الدين محمد بن قاسم البيري الصابوني (عاش في النصف الأول من القرن العاشر الهجري /

---

[١] منى محمود يوسف: عمارة المصابن، ص ٧٧-٧٩.

[٢] محمد راغب الطباخ: إعلام النبلاء، ج٥، ص ٣٥٣.

السادس عشر الميلادي) الذي كون شبكة اجتماعية واسعة شملت معظم القوم في حلب واستعان بمكانته وثروته في مساندة الضعفاء وذوي الحاجات من أهل حلب[١].

أما الطبقة الثالثة وهي قاعدة الهرم، وبالطبع عرف عنها أنها الأكثر اتساعًا من حيث الكثرة العددية، وضيق ذات اليد، وكانت تشمل: البدو الجامعين للأشنان أو القلي، وعمال المصابن غير المهرة، وأيضًا حمالي الصابون في الأسواق، وصغار الكتاب، وصغار التجار. وممن ورد ذكره في المصادر منتميًا لهذه الطبقة الشيخ محمد بن علي الحراني الحلبي المتوفى بمصر عام (٧١٠هـ / ١٣١١م) الذي كان من مصادر عيشه تجارة الصابون وأصناف أخرى[٢]، ونور الدين بن محي الدين الصابوني المتوفى عام (٩٤٥هـ / ١٥٣٩م) بحلب والذي بدأ حياته عاملاً في سوق صابون حلب[٣].

وبالرغم من وجود الطبقات الثلاث بوضوح، إلا أن حركة الأفراد والأسر داخل السلم الاجتماعي كانت واضحة، فيما يعرف بين علماء الاجتماع بالحراك الاجتماعي Social Mobility، بشكل سمح لصناع وتجار الصابون بالتنقل بين الطبقات الثلاث صعودًاUp Ward وهبوطًا Down Word فيما يعرف بالحراك الرأسي، وبالطبع الوضع الاقتصادي كان هو المؤثر الرئيس في الحراك داخل جماعة الصابونية، وربما يظهر هذا الحراك في صورة حراك أجيال بمعنى تغير حالة الابن عن حالة الأب، أو حراك لنفس الفرد عبر مراحله العمرية صعودًا وهبوطًا[٤]، فقد

---

[١] ابن الحنبلي: در الحبب، ق٢، ج١، ص . ٣٩٥-٣٩٦.

[٢] الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان، المتوفى ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م): معجم شيوخ الذهبي، ج٢، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، مكتبة الصديق، الطائف، ١٩٨٨م، ٢٥٣.

[٣] ابن الحنبلي : در الحبب في تاريخ أعيان حلب، ج٢، ق ٢، ص ٥٢٦؛ منى محمود يوسف: عمارة المصابن، ص ٧٧-٧٩.

[٤] محمد الجوهري: مدخل إلى على الاجتماع، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ٤٥.

ترتب على العمل بصناعة أو تجارة الصابون وضع اجتماعي لا بأس به للعاملين في مجال المصابن، ومنهم من كون ثروة جعلته في عداد الصفوة التجارية[١] ومنهم ميخائيل الصبان الذي أهله وضعه الاقتصادي وإظهاره للإسلام أن يتولى منصب ناظر للمتاجر السلطانية عام (٧٨٨هـ / ١٣٨٦م) ثم رقي للإشراف على تجارة الإسكندرية في عام (٧٨٩هـ / ١٣٨٧م) لكن ثبتت ردته فقتل[٢]، وممن ترقى به الحال من الطبقة الوسطى لطبقة الصفوة الشيخ شمس الدين محمد بن قاسم البيري الصابوني(عاش في النصف الأول من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي)، والذي بدأ حياته أمينًا لمصبنة البيرية بحلب، خلفا لوالده، واتسع به الرزق حتى صار صاحب مصبنة يتزاحم عليها راغبي صناعة الصابون أو طبخه من وجهاء حلب والتجار الوافدين، ودلالة اتساع دخله أنه كان متوليًا لنظر وقف مسجد النحويين بحلب وورث هذا المنصب عن أبيه، وكان ينفق على المسجد أكثر من ريع الوقف المقرر له[٣].

وممن حقق ثروة ضخمة من صناعة وتجارة الصابون شيخ الإسلام القاضي برهان الدين إبراهيم بن محمد بن أبي شريف المتوفى عام (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) الذي كان يملك مصبنة في القدس ويرسل منتجاته لتباع في أسواق مصر، وبسبب دخله الكبير لم يكن يقبل راتبًا عن وظيفة شيخ الإسلام إذ تولى منصب مشيخة مدرسة الغوري، ولم يكن يطلب شيئًا ينتفع به من كبار الموظفين خلافًا لعادة أهل عصره، وهو ما مكنه من الوقوف بصلابة في وجه السلطان قانصوة الغوري (٩٠٦-٩٢٢هـ / ١٥٠١- ١٥١٦م) ومعارضته في التدخل في أمور القضاء حتى عزل من

---

[١] جمال الدين القاسمي وآخران، قاموس الصناعات الشامية، ٢٦٩؛ طه حسين الزعارير، الصناعات والحرف، ص ٨١؛ إلياس القطار: نيابة طرابلس، ص ٦٦٥.

[٢] ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج ١، ص ٣١٧.

[٣] ابن الحنبلي: در الحبب، ق٢، ج١، ص ٣٨٥-٣٨٦.

منصبه لكن موقفه المعارض للسلطان صارًا مثلا تتناقله الأجيال [١].

كما حقق تراكم الثروة في أوساط تجار وصناع الصابون ظهور فئة ثرية أطلق عليها "أعيان الصابون" منهم بهاء الدين بن شيخ سوق الدهشة- الحلبي الشهير- الذي ولد في نهاية عصر المماليك وعاش وامتد به العمر حتى توفي عام (٩٤٥هـ / ١٥٣٩م)، وبسبب ثرائه العريض أكثر من امتلاك العبيد والخيول وكان لا يظهر إلا بالملابس الفاخرة، كما كان يعد الموائد العامرة الفاخرة لزواره، وزاد ثراؤه من شرهه فاتصل بذوي المناصب، وقدم لهم الرشى لينال ما ليس من حقه، وكعادة رجال المال في كل زمان زوج ابنته من ثري مثله وهو نور الدين الصابوني، والذي توفي صغيرًا فعادت ابنته إليه ومعها ثروة زوجها المتوفي فاستولى على هذا الميراث، ولم يلبث أن مات بعد قليل من كثرة الأكل[٢].

ولدينا نماذج من العلماء هم نتاج للحراك الاجتماعي داخل طائفة صناع وتجار الصابون، منهم التاجر الدمشقي بدر الدين بن غنايم المتوفى عام (٧١٤هـ / ١٣١٤م) الذي بدأ حياته تاجرًا صغيرًا ولما احترف تجارة الصابون حقق ثروة ضخمة ورثها عنه أولاده[٣] ومنهم الشيخ المحدث محمد بن عبدالله النبهاني المتوفى

---

[١] الغزي: الكواكب السائرة، ج١، ص ١٠٤.

في عام (٩١٩هـ / ١٥١٣م) قبض على رجل وامرأة واعترفا بالزنا تحت التعذيب، فرفع أمرهما للسلطان للنظر في إقامة الحد عليهما فتراجعا، وأقر الشيخ برهان الدين بصحة الرجوع في الاعتراف وأيده القضاة الأربعة، مما أغضب السلطان فشنق الرجل والمرأة على باب شيخ الإسلام، وعزله من المشيخة وكذلك قضاة المذاهب الأربعة، يقول الغزي أن هذه الواقعة كانت بداية اضطراب دولة الغوري وأفول نجمه. انظر: الغزي: الكواكب السائرة، ج١، ص١٠٣.

[٢] ابن الحنبلي: در الحبب، ق١، ج٢، ص ٦٨١- ٦٨٣.

[٣] البرزالي (القاسم بن محمد بن يوسف، المتوفى ٧٣٩هـ / ١٣٣٩م): المقتفى على كتاب الروضتين، ج٤، عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٦م، ص ١٧٠.

عام (٩١٩هـ / ١٥١٣م) وكان والده موظفا في مكتب الصابون بحلب وصف بأنه من المعدودين أي الإداريين النابهين، ويبدو أن كان ذا حال حسن مكنه من إفساح المجال لولده ليتلقى العلم ويترك العمل في سوق الصابون للعمل بالتعليم في جامع حلب[١]، وممن استفاد من العمل بتجارة الصابون وانتقل من الطبقة الثانية – المتوسطة – إلى الطبقة الأولى –العليا– نور الدين الصابوني والذي بدأ حياته العملية معاونا للشيخ عز الدين الصابوني الخطيب الذي توفى عام (٩٢٢هـ / ١٥١٦م)، وعمل بتجارة الصابون فحقق ثراء عريضًا وصاهر بهاء الدين الصابوني[٢].

ومن الصابونية من عمل مع كل الأوضاع السياسية بما يضمن بقاء منفعته، وخير مثال شرف الدين يونس العادلي الذي استغل عمله هذا في التقرب من أرباب الدولة في القاهرة فنال الحظوة في بلاط السلطان قايتباي، وعمل في خدمة ناظر ديوان الخاص ابن العلاء الصابوني، وفسر لنا ابن الحنبلي[٣] سر صعوده السريع في السلم الإداري المملوكي وهو صنعة الصابون، بحكم أنها مهنة يونس العادلي وهي في الوقت نفسه مهنة أسرة العلاء بن الصابوني الدمشقي الأصل، كما فسر سبب تلقبه بالعادلي تقربه من السلطان العادل طومان باي الأول (٩٠٦هـ / ١٥٠١م) كما تقرب من السلطان الغوري (٩٠٦-٩٢٢هـ / ١٥٠١ – ١٥١٦م) مما مكنه من جمع مال طائل من هذا القرب، وبالرغم من وجوده في مصر كان يُرسل إليه جزء من متحصلات معلم الصابون في حلب[٤].

---

[١] محمد راغب الطباخ: إعلام النبلاء، ج٥، ص ٣٥٤.

[٢] ابن الحنبلي: در الحبب في تاريخ أعيان حلب، ج٢، ق ١، ص ٣٥١-٣٥٦؛ محمد راغب الطباخ: إعلام النبلاء، ج٥، ص ٤٨٠.

[٣] ابن الحنبلي: در الحبب في تاريخ أعيان حلب، ج٢، ق ٢، ص ٦٢٠.

[٤] ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص ١٩٦، ٢٠١؛ ابن الحنبلي: در الحبب في تاريخ أعيان حلب، ج٢، ق ٢، ص٦٢٠ ؛ محمد راغب الطباخ: إعلام النبلاء، ج٥، ص ٤٣٩؛ عمر جمال محمد: "وثيقة وقف الخواجا شرف الدين يونس بن علي الصابوني"، ص ٤٣١.

ووصلت مكانته للقيام بدور السفارة بين السلطان الغوري والسلطان العثماني سليم الأول (٩١٨-٩٢٦هـ / ١٥١٢-١٥٢٠م) قبل غزوه لسلطنة المماليك، وفسر ابن الحنبلي[١] سبب اختياره: "لوجاهته وحداقته" حيث أرسل لجلب البارود والحديد والخشب لصناعة الأسلحة وذلك عام (٩١٦هـ / ١٥١١م) وكانت سفارة ناجحة عاد منها يونس العادلي ومعه مهمات القتال مصنعة جاهزة للاستعمال[٢]، وبسبب نجاحه في هذه المهمة كلفه الغوري بمهمة جديدة لتوثيق العرى بينه وبين نائب الشام، ففي عام (٩٢٠هـ / ١٥١٤م) قرر السلطان الغوري أن يزوج ابنه محمد من ابنة سيباي نائب الشام، وحمل المهر الأمير ماماي الخازندار يعاونه يونس العادلي[٣]، ولما قتل السلطان الغوري في موقعة مرج دابق ظهر يونس العادلي رسولًا من السلطان سليم الأول إلى أهل دمشق للنظر في تسلم المدينة[٤]، وفسر لنا ابن إياس سر هذا الظهور بأنه لم يكن مفاجًأ لكن السلطان سليم استقطبه وجعله جاسوسًا له[٥] وأرجح أن ذلك تم في سفارته عام (٩١٦هـ / ١٥١١م) وأن ما عاد به من أسلحة وذخائر كان للتغطية على مهمته التجسسية؛ وترتب على خيانة يونس العادلي مصادرة السلطان طومان باي لأملاكه وحريمه في القاهرة في رمضان

---

[١] ابن الحنبلي: در الحبب في تاريخ أعيان حلب، ج٢، ق ٢، ص ٦٢١.

[٢] ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص ١٩٦، ٢٠١؛ ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص ٢٧٩؛ محمد راغب الطباخ: إعلام النبلاء، ج٥، ص ٤٣٩؛ عمر جمال محمد: "وثيقة وقف الخواجا شرف الدين يونس بن علي الصابوني"، ص ٤٣١.

[٣] ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص ٣٩٧؛ ابن طولون (محمد بن علي، المتوفى ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م)، إعلام الوري بمن ولي نائبا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق عبد العظيم خطاب، مطبعة جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٧٣م، ص ٢٣٠- ٢٣٣؛ عمر جمال: "وثيقة وقف الخواجا شرف الدين"، ص ٤٣٣.

[٤] ابن طولون: إعلام الورى، ص ٢٤٢؛ أيضا: مفاكهة الخلان، ص ٣٣٧ ؛ عمر جمال، "وثيقة وقف الخواجا شرف الدين"، ص ٤٣٤.

[٥] ابن إياس: بدائع الزهور، ج٥، ص ٧٦.

عام (٩٢٢هـ / ١٥١٦م)[١].

وبسبب مكانة يونس العادلي الصابوني وما جمع من مال صار على سنة الأكابر من أهل عصره بعمل وقف خيري لأولاده حتى انقطاع نسلهم ثم يصير للمجاورين للحرمين الشريفين إذا تعذر وصوله إليهم صار لعامة المسلمين عام (٩١٣هـ / ١٥٠٨م)، والوقف يتضمن مساحات من الأراضي الزراعية وبعض العقارات في عدة بلدات تابعة لمدينة حلب[٢].

المبحث الرابع

العطاء العلمي للصابونية

يعد العطاء العلمي للصابونية أحد نتائج ازدهار صناعة الصابون وتجارته، فبسبب كثرة عوائده؛ أقبل على العمل بتجارته كثير من العلماء منهم: المحدث سليمان بن محمد بن حمد الحلبي المتوفى عام (٧٧٤هـ / ١٣٧٣م) الذي كان يكسب قوته من حانوت لبيع الصابون[٣]، ومن بينهم القاضي أحمد بن عبد الرحمن العامري الشافعي المتوفى عام (٨٧٧هـ / ١٤٧٣م)، الذي اشتهر بالبراعة في الفقه والنحو والأصول، وقد اشتهر بأنه عالم الرملة وقاضيها فقد تولى قضاءها عام (٨٤٤هـ / ١٤٤١م) وعزل وأعيد عدة مرات، وحين سأم كثرة التولية والعزل ترك العمل بالقضاء بالكلية واكتفى بالإفتاء وتجارة الصابون، من مؤلفاته كتاب في رجال البخاري أخذه عنه شمس الدين السخاوي[٤].

---

[١] المصدر نفسه، ص ٨٤؛ عمر جمال، "وثيقة وقف الخواجا شرف الدين يونس بن علي الصابوني"، ص ٤٣٥.

[٢] عمر جمال: "وثيقة وقف الخواجا شرف الدين يونس بن علي الصابوني"، ص ٤٣٩.

[٣] ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ١٦٢.

[٤] السخاوي: الضوء اللامع، ج ١، ص ٣٢٧؛

والفقيه الشافعي أحمد بن عبد الرحمن الجهني المتوفى عام (٨٧٥هـ / ١٤٧١م) الذي عمل بتجارة الصابون مع تكسبه من نسخ الكتب والإشهاد، واشتهر بأنه كان ثقة متعبدًا محبًّا لصلاة الليل، وكان السخاوي يكثر من زيارته والانتفاع بعلمه وما يرويه من تراجم الرجال ومنها ترجمة الشهاب الأبشيطي، ومما ساعده على العمل بتجارة الصابون ما ورثه عن أخيه من ثروة طائلة لم يكتف بالانتفاع بها لكنه عمل على تنميتها بالتجارة[١]، وقد عمل بالتجارة في الصابون مع أخيه في حياته فلما توفى الله أخاه واصل العمل بهذه التجارة.

وربما تعددت أعمال تاجر الصابون حتى اضطر لتوكيل من يعمل مكانه في هذه التجارة مثل الفقيه الشافعي كمال الدين بن أبي شريف [٢]، الذي تولى تدريس الفقه في عدة أماكن حتى اشتهر حتى ووصل لمرتبة شيخ مدرسة الغوري ولما عزل، لزم بيته فتوجه إليه الناس جماعات لطلب الفتيا وتلقى العلم على يديه في مختلف العلوم العقلية والنقلية، وقد ترك ابن أبي الشريف ميراثا علميًّا ضخمًا منه كتاب: "الإسعاد بشرح الإرشاد"، و"التاج والإكليل على أنوار التنزيل"، و"الدرر اللوامع بتحرير شرح جمع الجوامع" و"الدرر المشرقات في نظم الورقات" والفرائد في حل شرح العقائد"[٣]. وكانت أسواق الصابون في حلب مكانًا للتبادل العلمي وإلقاء الشعر وفنون الأدب، ومن ذلك قيام القاضي أحمد بن أبي بكر بن سراج بإلقاء الشعر في مكتب العدل بسوق الصابون بحلب[٤]، وممن انطلق من سوق الصابون بحلب لرحاب العلم وخدمة الدولة القاضي محمد بن سيد منصور المتوفى في العقد الأخير من القرن التاسع الهجري، والذي بدأ حياته العملية في دار العدل

---

[١] المصدر نفسه، ص ٣٢٨؛

[٢] المصدر نفسه، ج٧، ص ٢٦؛ الغزي: الكواكب السائرة، ج١، ص ١٠٤.

[٣] السخاوي: الضوء اللامع، ج٩، ص ٦٤-٦٧.

[٤] محمد راغب الطباخ: إعلام النبلاء، ج٥، ص ٢٧٤.

بسوق الصابون في حلب حيث كان يلقى بعض أشعاره ومنها اتجه لدراسة الفقه والعلوم الشرعية ومخالطة أرباب الدولة فتولى عدد من المناصب منها: كتابة السر ونظر الجيش ونظر قلعة حلب[١].

كانت بعض المصابن أيضًا مواطن لنقل العلم وخاصة إذا كان مالكها من العلماء، ومن بينهم الشيخ شمس الدين محمد بن قاسم البيري الصابوني، الذي جعل مصبنته مكانًا لمدارسة التاريخ بكل حقبه، بحسب ابن الحنبلي[٢].

وتعد دار القرآن الصابونية في دمشق من أهم ما تركه الصابونية من منشآت علمية، وقد بنى هذه المدرسة التاجر الشهير أحمد بن سليمان البكري المشهور بابن الصابوني، وبسبب ضخامة النفقة عليها استغرق بناؤها خمس سنوات بدءًا من عام (٨٦٣هـ / ١٤٥٨م)، وتم البناء في عام (٨٦٨هـ / ١٤٦٣م)، وتكونت الدار من مسجد وتربة للواقف ولأخيه، وسكن للإمام وأولاده وعدة خلاوى للصوفية، ووقف عليها أوقافًا كثيرة، منها عدة قرى من ضواحي دمشق وبيروت، وقد عرفت القرى الموقوفة قربها بالصابونية، وجعل نظر وقف هذه المدرسة لنفسه ثم لذريته من بعده، ومكتبًا للأطفال، وشرط أن يكون الخطيب فيها من الشافعية، أما الصوفية فيكونون من الجبرتية القادمين من الحبشة بشرط اتباعهم المذهب الحنفي وأن يكون شيخهم من الجبرت فإن لم يكن فمن الوافدين من اليمن[٣].

---

[١] محمد راغب الطباخ: إعلام النبلاء، ج٥، ص ٣٢٥.

[٢] در الحبب، ق٢، ج١، ص ٣٨٦.

[٣] النعيمي (عبد القادر بن محمد، المتوفى 927هـ /١٥٢١م): الدارس في تاريخ المدارس، ج١، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م، ص ١٢؛ عبد السلام محمد الجبوري: المنشآت الوقفية والخيرية في بلاد الشام في العصر المملوكي، دار الكتاب الثقافي، عمان، ٢٠١٤م، ص ٩١.

الخاتمة والنتائج:

بعد هذا الدراسة التفصيلية نخلص لأمور عدة منها:

- كانت صناعة الصابون من أهم الصناعات التي راجت في عصر سلاطين المماليك، بسبب وفرة الخامات، وحاجة الناس للصابون لأغراض مختلفة منها الصحي ومنها العلاجي.
- توافرت خامات الصابون بشكل كبير في الشام أكثر من مصر، وبالتالي لم تكف كمية الصابون المصنوعة في مصر الاستهلاك المحلي فراجت تجارة الصابون بين الشام ومصر.
- أدرك الأوربيون أهمية الصابون فأقبلوا على استيراده من الموانى الشامية مما ساعد على نشاط التجارة الدولية للصابون الذي صدر أيضا لبلاد فارس وأسيا الصغرى موطن الدولة العثمانية الناشئة في ذلك الحين.
- نتج عن استقرار صناعة الصابون ظهور هرم طبقي داخل طائفة صناع وتجار الصابون كان على قمته معلم الصابون الذي أشرف على العلاقة بين الدولة والصبانين.
- ساعد تراكم الثروة في أيدي الصبانين على حدوث حراك اجتماعي مما أدى لاشتهار كثير من صناع الصابون وتجاره بسبب مكانتهم الاجتماعية المكتسبة من تراكم الثروة في أيديهم وارتباط مصالحهم بالسلطات الحاكمة.
- تركت تقلبات الأوضاع السياسية آثارًا لا تنكر على صناعة الصابون وتجارته، وبخاصة في عصر المماليك الثاني بسبب سياسة رمي الصابون الجائرة التي أفرزت ردود أفعال غاضبة من تجار وصناع الصابون.
- جمع عدد كبير من الصابونية بين صناعة الصابون وتجارته وبين العلم مما مكنهم من منح الفرصة لأبنائهم للتفرغ لتحصيل العلم مما ساعد على ظهور عدد كبير من العلماء المنسوبين للصابونية كان لهم إنتاج علمي في كثير من المجالات.

خريطة مناطق انتاج الصابون ومراكزه التجارية

شكل رقم (١)

مصبنة نابلسية تقليدية من الداخل عن غسان دويكات: قلي وزيتون، دور البدو والقرويين في صناعة الصابون النابلسي، موقع باب الواد على الانترنت ، زيارة ١٨ مايو ٢٠٢٣.

https: / / babelwad.com / ar /
%D9%81%D9%84%D8%B3%D8%B7%D9%8A%D9%86 /
%D9%82%D9%90%D9%84%D9%90%D9%8A-
%D9%88%D8%B2%D9%8A%D8%AA%D9%88%D9%86-
%D8%AF%D9%88%D8%B1-
%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%AF%D9%88-
%D9%88%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B1%D9%88%D9%8
A%D9%8A%D9%86-%D9%81%D9%8A-%D8%B5%D9%86 /